

حسين المناصرة

خندق المصير

(رواية)



خندق المصير

حسين المناصرة

خندق المصير
(رواية)

دار الفارابي

الكتاب: خندق المصير (رواية)

المؤلف: حسين المناصرة

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130

الطبعة الأولى 2001

ISBN: 9953-411-37-9

جميع الحقوق محفوظة

DAR AL FARABI

(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban

Tel: (01)301461 - Fax: (01)307775 - P.O.Box: 3181/11

Code Postale: 1107 2130

e-mail: farabi@inco.com.lb

إهداء

أهديت روايتي الأولى إلى شهداء الانتفاضة الأولى... وها أنا أهدي هذه الرواية إلى شهداء الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى) ودرتها محمد الدرة، وجرحاها، وأطفالها وشبابها ونسائها ورجالها، وإلى الشعوب العربية التي تلملت من أجل تعميق وحدة مصيرها، وإلى المشاعر الإنسانية كلها مؤيدة للشعب العربي الفلسطيني الصامد في وجه أقذر استعمار استيطاني صهيوني على وجه الأرض!! راجيا ألا تكون دماء شهدائنا ضحية مخطط التسوية المشبوه...

تنويه

كتبت رؤى هذه الرواية عام ١٩٨٠ لما كنت طالبا سنة
ثالثة في الجامعة الأردنية، كان عنوانها "بأسنانكم،
بأظافركم.. مذكرات طفل حزيناني" ..

آنذاك قرأت بعض صفحاتها التي تجاوزت السبعين على
بعض زملائي المقربين الذين أبدوا إعجابا باللغة الشعرية التي
طغت على اللغة السردية، فبدت لي كأنها قصيدة نثر طويلة
جدا..

مزقت تلك الرواية قبيل اعتقالني، وأنا في مرحلة
الماجستير، عام ١٩٨٢. اعتقدت حينها أن جرأتها قد تخرب
بيتي!! لم أفكر أن أضعها عند شخص ما، لأنني ظننت أن
الأفكار خطيرة، لا يجوز أن يطلع عليها أحد. ربما يتهموا لي
الآن أن رؤى تلك الرواية بيان سياسي؛ حمدت الله على أنني
تخلصت منها، إذ لو وجدوها عندما اعتقلوني لزادت الطين
بله!!

أعدت كتابة الفكرة العامة عام ١٩٨٥ بلغة سردية، إذ كنت بين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٧ متشائلا عاطلا عن العمل بسبب حجز جوازي. . خلال هذه الفترة الطويلة قرأت وكتبت الشيء الكثير، خاصة أن أخي الأكبر كان يبعث لي المصروف شهريا، كأنني ما زلت على مقاعد الدراسة. سميتها "احتراق الجحيم"، أخفيت في أكثر الأماكن سرية، لا لشيء سوى لأنني لا أريد أن أعرض نفسي للمزيد من "المشاكل". إضافة إلى أنني اقتنعت بأنه لا يمكنني نشرها بسبب جرأتها!!

في منتصف التسعينيات عدت إلى الرواية بوصفها واحدة من بين خمس روايات مخطوطة. . قرأتها، لم يعجبني أسلوبها، وكذلك بعض أفكارها. بدأت أصفها على الحاسوب مغيرا تفاصيلها ولغتها إلى حد كبير، غدت أكثر منطقية وربما جمالية في تصوري. .

قيل النشر حورت. . غيرت!!

ما أكثر ما مزقت!! أكثر بما راقبت!! وكم من الأفكار المهمة سحنت!!

فكرت أثناء الإعداد للنشر أن أضيف فصلين مهمين عن الانتفاضتين؛ الأولى والثانية. . لم أستطع أن أكتبهما؛ لأن فكرة الرواية الأصل قائمة على البحث عن اليد التي تقاوم المخرز بعد خروج المقاومة من بيروت، إذ يد البطل تبحث عن يد أو أيد أخرى تصفق معه في واقع بدا كأنه يتعري من القيم الثورية. .

إن الانتفاضة تحتاج إلى روايات!! بل يبدو أن الانتفاضة

الثانية حملت للحظات تصفيقا رائعا بأيدي أبناء هذه الأمة التي لن تموت طموحات وحدثها مهما حاول أعداؤها..

المجد لنا عندما نتوحد في خندق قضايانا المصيرية!!

بكل تأكيد تمثل شخصيات الرواية نفسها التخيلية فقط، لا تعني في أية حال الإحالة إلى الواقع أو أن تكون نماذج لشخصيات أخرى واقعية.. وفي هذا السياق لا أتحمل أية مسؤولية تؤوّل كلامي على غير هذه الوجهة.. إذ إن أية مصادفة بين هذا التخيل والواقع لا تعني الحقيقة بتاتا..

كما لا تعني بعض أسماء الأمكنة الواقعية أو غيرها أكثر من كونها مجرد أسماء استخدمتها استخداما خاليا أو عاريا من أية دلالات تاريخية.. وأذكر تحديدا استخدام اسم بلدة "بني نعيم" ..

(1)

رابعة

كانت السماء الغافية شبه غائمة عندما صرخت المرأة الأسطورة التي هرولت كلبوة أصابتها رصاصة طائشة في خصرها النحيل... وبولادة صرختها هذه اقشعرت السماء، قافزة من غفوتها، مبحلة في وجه الأرض التي جفت مياهها في المآقي، وانفتحت نوافذها فاغرة الأفواه تراقب آثار الصرخة المتوهجة التي تدحرجت ككرة جليدية قابلة للانفجار إلى آلاف القطع النارية الحارقة في عروق الجنود الباردة دماؤهم..

أحد الجنود شرّع بندقيته تجاهها، فاتجه الآخرون، وهم يزيدون على العشرة، يتدحرجون إلى الزوايا المتناثرة مصويين بنادقهم كلها تجاه المرأة الهادرة التي صرخت صرختها المدوية، ظنوها كتلة دمار تحيط بهم، صرخة يحملها آلاف الرجال المدججين بالحجارة الصوانية، يحاولون إشعال كومة كبيرة من الديناميت الذي سيحول المكان الريفى إلى بركان هائج مائج، لكنه بركان ليس أكثر من صرخة مرعبة كبلت

الجنود عند أرجل عفريت ضخمة في جوف بئر عميقة.. فانخلعت قلوبهم من محاجرها المدججة بالسلاح، مما أتاح المجال للطفل القابع قبل الصرخة تحت أرجلهم يمرغونه في التراب أن يفز كمهر أصيل، لينحدر إلى رأس الجبل كأنه قشة في مهب ريح عاتية أو إعصار.. هناك كمن وراء الصخرة يراقب الموقف المشتعل بالصرخة متحفزا كنسر تعلم الطيران لتوه، حذرا من أن يقفز إلى الهواء مرة أخرى قبل أن يثق بنفسه..

الجنود المدججون بمئات القطع النارية يصوبون قذائفهم إليها بوصفها الهدف الوحيد، وهي راکضة كبقرة وحشية لم تعد تبالي بالذئاب بعد أن أيقنت بفرار وليدها من بين أنيابهم.. وقفت في مواجهة الجندي الموالي لها.. نظرت إلى عينيه.. ارتجت مفاصله من رعب الفاجعة التي حطت عليه منذ أن حمل البندقية يواجه بها حجر أبناء الأرض!! كاد أن يسقط على الأرض، لكن التفاف الآخرين حوله شدّ من عزمه المتهالك، تمالك خوفه الغريب موثقا يديه المرتجفتين حول كومة الرصاص في مخزن النار.. نظرت إلى رأس الجبل حيث يقبع فلذة كبدها.. رأت رأسه الصغير هناك آمنا مستنسرا.. أعادت النظر إلى الجندي المرتعد.. بصقت على وجهه الأسن برائحة العرق المتعفن.. لم يجروا على أن يغمض عينيه اتقاء جريان البصقة خوفا من هجمة متوقعة.. راقبها بخوف.. ثنت عنقها بشموخ وارتدت عائدة إلى الوراء.. مسح وجهه بكمه الأيمن.. صوب بندقيته إلى ظهرها، فأفرغ عليها صلية

الرصاص .. تماكنت أنفاسها المتبعثرة .. طارت إليه .. سقط على الأرض .. وضعت رجلها اليمنى فوق وجهه المتجمد .. غرغر تحت جحيم إصرارها على أن تنزع روحه الميتة .. أطلق الآخرون صليات الرصاص إلى ذرات جسدها الذابل .. مشت خطوات صامته .. ثم سجدت فوق التراب تصلي لفجر آت لا محالة ..

كان الصغير ينظر إليها من هناك .. رآها صخرة شامخة .. ورأى الجنود أقزاما تفر هاربة، تطلق صليات النيران في كل الاتجاهات الضاحجة بحجارة الناس التي اشتعلت محيطه بهم من كل فج و زاوية .. سرت الأصوات المتعاطفة الشائرة في الحارات الدانية والقاسية:

- رابعة المجنونة قتلت!!
- استشهدت .. !!
- رابعة حمت ابن عامر!!
- رابعة شهيدة!!
- مين قال رابعة مجنونة؟!!
- رابعة يا جماعة كانت تدعي الجنون؛ لتحميكم في الليالي الدامية من هسهسات غربان البنادق، وبوم السواد، وخفافيش الموت!!
- رابعة كانت تعرف كيف تصرخ، كيف تجعلهم يحسبون لكم ألف حساب .. كانت صرختها بألف حجر!!

حملت البلدة جنازتها الخفيفة مباشرة إلى المقبرة، وهناك كزهرة عطرة لم تتفتح لتذبل واروها تحت التراب في صدر الجبل الشامخ منذ آلاف السنين كقلب نابض بالحب لنا وبالصرخات عليهم من حيث دبوا غرباء مرتزقة..

* * *

كان في العاشرة عندما تخيل رابعة أعظم من أمه التي تقول عنها مجنونة.. لم يعد يظن أن أمه أعقل العاقلات.. الصحيح أنه خاف من رابعة.. لكنها عندما صرخت فيهم لتنتقذه شعر أنه طفل يولد من جديد.. وأن صرختها ماثلت صرخة أم أنجبت طفلها لتوها.. ثم ماتت ليعيش وليدها في أحضان الأمهات كلهن..

رابعة بنت الجيران لم تكن تتحدث كثيرا مع الناس.. كانت أسطورة.. لم تؤذ أحدا، فقط "تنفث" شعرها ليتطاير في الهواء، فتبدو مجنونة من وجهة نظرهم.. قيل إنها أحبت فارسا مارا.. لكن أخوتها ضربوها لما رأوها تعانقه قبل الرحيل، ضربوها على رأسها.. ويقال أيضا إنهم لحقوا بفارسها ودفنوه في الصحراء بعيدا عن عيون الناس.. فغدت تخرج إلى الشوارع.. تبحث عنه.. ذهبت إلى البراري والصحراء مرارا.. التقت بدويا ظنته فارسها.. لكنه هرب منها بعد أن أدرك جنونها.. تغيب كثيرا في جوف البيت.. يقال إن أخوتها سجنوها.. كانت طيبة.. لم تؤذ أحدا!! ألا يكفي هذا لوصفها بالعاقلة!!

مئات من الأفكار هاجمته لتقنعه أن رابعة أنقذت حياته،

وأنه يعيش بمعجزة إلهية دفنت رابعة مكانه!! صارت قديسة..
غيروا اسمها، فغدوا يقولون الشهيدة رابعة بعد أن قالوا رابعة
المجنونة..

في الماضي تصور أية رابعة في القرية ذات مس في عقلها
لا يوصلها إلى درجة رابعة المجنونة؛ وذلك قبل أن تدافع عنه
بصرختها الأسطورية!! ثم صارت الرابات سيدات النساء بما
فيهن رابعة العدوية التي تعرف إلى سيرتها بعد أن التحق
بالجامعة...

* * *

يتحدث الناس عن قصص جنون كثيرة، تروي النهايات
الحزينة في الليالي الباكية.. أم سالم سافر ابنها إلى أميركا..
انتظرته طويلا، ثم جنت عليه، فدارت في البراري حتى أكلتها
الوحوش... المعلم العبقري راشد جن من غير سبب..
فأحرق نفسه بعد أن أحرق بيته.. قبل ذلك حاول أن يحرق
زوجه مرارا.. الشيخ المتصوف عيسى حاول أن ينتحر مرات
عديدة.. المختار تركي قتل زوجه، ثم أدرك جنونه.. بكى حتى
صار درويشا يمشي في الشوارع بلا هدف!! الفارس المغوار
الشيخ حماد كان أشجع فرسان البلدة، جن عندما خانت زوجه
الجميلة هاربة مع خادمه إلى ديار أخرى!! صار مجنونا مؤدبا،
يركب فرسه باحثا عنها في الطيران والمفر.. بنت عابد
أحرقت نفسها بعد أن دلت الكاز على ثيابها فأشعلت النار
بملابسها.. باسم وحيد أمه يسير في الشوارع يطلب من كل
من يلاقيه سيجاره... محمد حسن لا يأخذ إلا قرشا واحدا

ممن يلاقيه في الشارع حتى داسته الشاحنة.. الصحفي أبو عبده، كما يلقبه الناس، لا يترك تجمعاً إلا ويقف فيه يخطب بلغة عربية فصيحة، لاعنا الأنظمة العربية التي لم تفعل شيئاً في وجه غطرسة الصهاينة، فيحاول الناس تهدئته في الأفراح وبخششته بالهدايا شرط أن يسكت، حتى لا يتحول العرس إلى "عزا"... الختار جادع قضى حياته الأخيرة يحاول أن يرمي نفسه في البئر، وغافلهم فانتحر في جوف بئر أخرى خربة..

قصص كثيرة يمكن أن يرويها عن الجنون في بلدته الغافية على مآسي الكون كله.. لكنه لا يستطيع أن يكمل ويتوغل كثيراً في هذا الجانب، لأنه يخاف على عقله، يخاف أن يحدث له ما حدث لهؤلاء ولغيرهم.. يحمد الله! مازال يدرك أنه عاقل يحسن التصرف، ويقيم العلاقات المتوازنة مع الآخرين..

حزن كثيراً، كادت أن تخنقه العبرة عندما همست له أمه تحدّثه عن نفسها قائلة: ليال كثيرة يأتيني هاجس داخلي يقول لي: "هيا اتركي البلد، هجي في البراري بعيداً عن الناس، عيشي جنونك بعيداً عن كل ما حولك حتى تأكلك الوحوش مثل وطفة المجنونة الله يرحمها"... وتروي له قصة وطفة المجنونة الله يرحمها: "طفه مسكينة لا نعرف من أين أتت إلى بلدنا، كانت تعيش في البراري، وأحياناً تأتي إلى بيتنا، أعطيها الملابس، وأقدم لها الأكل، أحممها، وأمشط شعرها، أظل وراها أن تنام عندنا لكنها ترفض وتقول أنا رايعه للبراري أبحت عن ولادي اللي أخذهم جوزي.. الله أعلم.. تعدو

جوزها أخذ ولادها وتركها، انجنت.. ما في الدنيا أغلى من الضنى.. الله أعلم! يمكن الحرمة بتتخيل عندها ولاد وجوز.. بس أنا بأشعر أن المسكينة وراها مصيبة طيرت عقلها وجعلتها مجنونة دايره في البراري.. الله يكون بعون الناس على مصاييهم.. لما تشوف مصيبة مثل مصيبة وطفة المجنونة بتحمد الله على مصيبتك الأهون.. والله يا ابني ما صبرني على الحال إلا الإيمان بالله والصبر على ما بأشوف.. كل النسوان اللي بموتن في القرية أنا بغسلهن وبأدفنهن.. وهاي أنا صابرة.. بس المسكينة وطفة أكيد ما حدا كفنها.. آخر مرة ذهبت من عندي قبل خمس سنوات، وإلى الآن ما رجعت.. أكيد أكلتها الوحوش.. الله يرحمها.. وأكيد سيرحمها الله لأن المجنون مرفوع عنه القلم.. الله يدخلها الجنة بلا حساب!!

رابعة رحمها الله أسطورة في الجنون، مخلوقة تعرف كيف تحفظ جنونها.. كيف تفرغه في وجه جنود الاحتلال، صرختها الأخيرة لحمايته من مخالب طيور الرخ موج ما بعده موج.. إنها تذكره بالحاج خالد الذي جن أو هكذا يقول الناس عنه، رغم أنه متوازن إلى درجة كبيرة، عندما يروونه يؤشرون إلى رؤوسهم بفتح اليد المغلقة، ليخبروا أنه مجنون.. صار الجيش يعرف أنه أحد مجانين البلدة، هو نفسه ساق على هذه الفكرة، اتخذها مطية ليحذر شباب الانتفاضة الأولى من الجنود المتسترين باللباس العربي أو المندسين في الزوايا!!

الجنون فنون كما يقال.. وأنا لست مؤرخا أو باحثا في هذه الفنون.. أنا فقط أدين للجنون بأنه دافع عن حياتي، كنت صغيرا عندما هدرت تلك المرأة صرخة الولادة لتنقذني من مخالب الخاطفين لأرواح الطفولة.. كانت رابعة الشهيذة أما حقيقية، رغم أنها لم تتزوج، تعرف كيف تدافع عن أبنائها، تعرف أن مصيرها الموت في دراما مأساوية.. هكذا تكون نهاية الجنون الإنساني مأساوية، كما تكون تصرفاته الإنسانية غريبة إلى درجة كبيرة..

مجنون حارتنا الصغير يحب أن يدخن أعقاب السجائر التي يلقيها أصحابها على الأرض.. يفضل أن تلسعه الأعقاب، يرفض أن تقدم له سيجارة كاملة، على المدخن إذا أراد أن يكرمه أن يشعل السيجارة، يدخن بعضها ويلقيها على الأرض؛ ليتناولها فيدخنها بجنون المتعة وتعب البحث عن أعقاب السجائر، وانتظار سقوطها على الأرض كانتظار قطرة المطر على رمال الصحراء..

جنت الفتاة الحلوة بعيد سفري للدراسة الجامعية في الدولة المجاورة، كانت في تصوري أجمل بنات حارتنا.. والصدق أنها لم تكن تعرف بأنني معجب بجمالها، وهي ربما أحببتي ولم أعرف أيضا.. عندما عدت بعد عام من غربتي سألت بطريقة غير مباشرة عنها، قالوا: "المسكينة جنت، الله يكون بعونها، أمها توفيت، وهي جنت من أعباء حمل مسؤولية أخوتها.. لكن قبل شهر زوجها أهلها لواحد من بلدة بعيدة، واحد لا يعرف أنها مجنونة!! المفاجأة أنها لما عادت إلى

البلدة قبل يومين عادت سيدة العاقلات . . . الجمال، المال، الكلام مثل الشهد . . الزوج طائر فيها للعلالي . . شو بدها أحسن من هالقسمه والنصيب . . ولا كانت تحلم فيها حتى في الحلم . . والله سبحانه وتعالى بيعطي العز للي ملوش أسنان!!".

أهم صديق لمراهقتي جن هو الآخر، كان يقرض الشعر متغزلاً بفتاة جميلة قبل سنوات طويلة، قيل إنه أخذ الشعر عن عمه المسن وادعاه لنفسه . . صحيح أن الشعر جزء من الجنون، لكنه لم يوصل الشعراء إلى الجنون الحقيقي، فلماذا جن علي؟! ربما دعونا مجنوناً في الماضي على الطريقة الفكاهية، وذلك بعدما صعد في أحد الأيام إلى سطح البيت، كنا مجموعة نجلس في الأسفل، يومها تلقينا كمية كبيرة من بوله فوق رؤوسنا . . هجنا ومجنا . . لكن النتيجة أنه قبل رؤوسنا لمطايبة خواطرننا . . ما أراه الآن أنه جن . . كنت أجلس عند طبيب من جيلنا، فجاءه علي ليسأله عن تحليل . . طمأن الطبيب خاطره . . بعد أن خرج قال لي الطبيب: المسكين جاءه مرض في الدماغ . . سيوصله إلى الجنون لا محالة خلال شهر أو شهرين . . وفعلاً جن صديقي القديم بعد أسبوع، وضعوه في غرفة خاصة مربطاً بالحبال لعدم توافر مشفى للمجانين في بلدتنا!!

* * *

لماذا أحدثكم كثيراً عن الجنون!! هل هذا ما يحدث لكم أحياناً؟! هل تخافون من الجنون!! أم يخاف المجانين منكم . .

ألم تشاهدوا بعض المجانين العقلاء.. لقد شاهدت ذلك المجنون العريق الذي صرح للصحفي أنه يقيم في مشفى المجانين في الدولة المجاورة هاربا من المجانين خارج القضبان. لم أتعجب من أقواله لمعرفتي برجاحة عقله عندما درسني مادة الفيزياء في الصف الأول الثانوي!! وعلى ذكر جنون أساتذة المدارس، فقد درسني في المرحلة المتوسطة معلم عبقرى، كان الطلاب يصفونه فيما بينهم بالمجنون العبقرى، كان رحمه الله لا يشغل من الحصة إلا قدر ربع ساعة من أربعين دقيقة، متحديا أن يفهم الدرس أغبي الأغبياء، ويذكر غباء ياسر أو نضال، وفعلا نفهم الدرس جميعا بما فينا ياسر ونضال. نقضي بقية الحصة نلعب لعبة "لماذا / لأن"، يصر معلمنا على أن نبتعد في مسخرتنا عن المعلمين الآخرين، ولا يمانع أن تكون المسخرة عليه.. ومن طرائف جنوننا آنذاك: لماذا بنطلون المعلم ماصع؟! لأن "أم أحمد" تباع فلافل محمضة!! لماذا أنف المعلم مثل صباية القطايف؟! لأن اللعبة بايخة؟!؟.

سأروي لكم قصة حامد شبه المجنون في بلدتي التي لم أعد أميز فيها العقلاء من المجانين!! تعرفت عليه عندما دعيت إلى اجتماع للعائلة للتباحث بأمره، قالوا لي: "إنه مجنون، يحتاج إلى قرار جماعي كي نضعه في المصححة بالدولة المجاورة!!" لم يقنعني كلامهم، لأن حامدا كما عرفت حينها يحمل ثلاث شهادات عليا؛ لذلك ظننت بأهل بلدتي الظنون؛ كأنهم ارتكبوا إثما كبيرا لأنهم جننوا العقلاء، بل أظن أنهم

كثيرا ما وصفوا العبقرية جنونا، وهنا أصريت على أن يتركوا لي حامدا كي أتصرف معه بحرية في إصلاح أمره. خلال أسبوع استطعت أن أعرف أنه ليس مجنونا، وإنما يوجد عنده انفصام في الشخصية، شيء من مرض الشك. . وعن طريق الحوار العلاجي الاجتماعي بيني وبينه أصبح حامد رجلا عاقلا، ها هو الآن يعيش بين زوجة جديدة وأطفال، إذ تبين لي أن زوجه الأولى أحد أسباب جنونه، كما أن زوج أبيه قبل ذلك عذبه في الماضي كثيرا مع أخويه اللذين انتحرا بعد الأربعين، أحدهما قتل نفسه بالسكين، والآخر أحرق نفسه!! هل سيفعل حامد ما فعله أخواه يوما ما؟! أنا أعتقد أن الجسر الواقع بين العقلانية والجنون لا يتجاوز الشعرة التي نستلها من ثنايا العجين المتخمّر!!

أغرب ما سمعته من أخبار الجنون ما اتهمت به سلطات بلدي ابن عمي الذي يشهد الجميع بتفوقه وعقلانيته، كان هذا بعد أن ألقى قنبلة يدوية من صنع يده على جيب عسكري، ونتيجة لكون العلاقة مفاوضات بين سلطاتنا وسلطاتهم فقد وقعت سلطاتنا في الحرج، لم ينقذها منه إلا ادعاؤها أن ابن عمي مجنون، والدليل على ذلك أنه انتحر بعد يومين من الحادث في زنزانته الانفرادية. . قال أهل بلدتي العارفون بخفايا الأمور: الصحيح أنهم خنقوه، وادعوا انتحاره!!

* * *

الجنون يا سادة أخطبوط يلاحق أفكار المندمجة بمآسي بلدتي الكثيرة، فلا أجرؤ على أن أخوض في تفاصيله المرعبة،

ودائما يرددون في تجمعاتهم: المجانين في نعيم والعقلاء في جحيم!! فهل حقا نحن في نعيم؟! أعني هل المجانين في نعيم كما يدعون؟! كما

أطرف مجانين بلدتنا- رحمه الله - يقطع شوارعها طولا وعرضا، راكضا يصفر، ويؤشر، وأحيانا يحمل حجرا يهدد به الفضاء، ولا يتوقف إلا ليرتاح!! يخرج شيئا من جيبه الممزقة، يأكله بسرعة، يصرخ في الفراغ: إلى الجحيم يا عقول الخراب، إلى الجحيم يا عقول الخراب...!!

لم أكتب عن الجنون؟ هل أريد أن أعلي من شأنه تكريما لموت رابعة؟؟ أود أن أقول لها: يا سيدة المجانين كنت بحق سيدة العقلاء!! هل أريد أن أكتب رواية على جثة السيدة التي ماتت بدلا عني!!؟؟ أم أكتب رواية عن حياتي الممتدة في مسالك الجنون الإبداعي بعد تلك الحادثة لأشكر سيدة النساء على ما فعلته من أجلي؟! لقد أنجبتني صرختها وماتت!! ربما أحاول التكفير عن أشياء كثيرة قلت عن جنونها الذي بدا لي عقلانيا في نهاية المطاف!! إنها سيدة النساء اللواتي أنجبن أبناءهن راكضين خلف الدبابات، حاملين بأيديهم وجيوبهم الحجارة الحميمة، مراوغين بين القذائف وصلبات الرصاص المنطلقة إلى صدورهم!!

أحد أفراد عشيرتنا أقصد عشيرة المجانين، كان في يوم من الأيام محترا، ضائق الصدر، ملتهب الأنف.. ملّ من الحياة فملته.. طار عقله إلى حد الخروج على كل مألوف.. توقف في الشارع العام.. أشعل سيجارته المجنونة.. تأمل الناس من

حوله.. قال بصوت جهوري: سأريكم كيف يكون الجنون؟! أخذ يخلع ملابسه قطعة قطعة.. ثم سار في الشارع عاريا من كل الأشياء باستثناء حذائه.. لم يعودوا يصفونه بالجنون!! قالوا عنه: كان ثملا.. لأن هذه العملة عملة سكران لا مجنون!! طبعا لم يكن بإمكانني أن أصدق هذه الحادثة لو لم يكن المنظر أمام عيني.. صدقتم هذه الحكاية أم لم تصدقوها.. المهم أنني أصدق ما أراه من جنون أبناء عشيرتي والعشائر الأخرى في بلدتي المسكونة بالخرافات والأساطير وخيالات الإبداع المجنون!!

* * *

لم تكن قصص الجنون هذه إلا غيضا من فيض، ولو تابعت الحكى لكتبت رواية طويلة عريضة عن أخبار المجانين، لكن هذه الرواية لم تكن للجنون، وإن كان الجنون جزءا مهما منها، إذ يجب أن أعترف لكم بأن العنوان الذي اخترته: "حانا ومانا"؛ هو عنوان له دلالة جنونية كبيرة، فقد سمعت ترديد هذا المثل كثيرا على شفاه الناس: "بين حانا ومانا ضاعت لحانا" فمن هو "حانا؟؟" ومن هو "مانا؟؟". "لحانا" معروفة، فاللحية هي كرامة الإنسان العربي في بلدنا، فعندما يطلب من شخص واع أن يوثق وعوده، يقولون له: امسك لحيتك.. فيمسك لحيته ويقول: من هاللحية سأحقق لكم ما تريدون.. ولا يمكن في أية حال من الأحوال أن ينقض الواعد وعده، وإن حدث ونقض ما وعد؛ فمعنى ذلك أن لحيته أصبحت مثل الممسحة التي تمسح بها النسوان بول

الأولاد عن المساطب.. ويهياً لي أن حانا ومانا مجنونان
أسطوريان من بين مجانين بلدتنا، كأنهما قادا الناس إلى
التهلكة والذل. استبدا بالناس، فأذلا الكريم، ورفع اللئيم،
ولم تعد للحى الرجال أية فاعلية، فضاعت لحانا بين حانا
ومانا كرمزين للمصائب!!

ما عرفته عن قصص المجانين هو أنهم ليسوا اجتماعيين،
يعني أن كل مجنون يزمر على هواه، ومن الصعب أن تجد
مجنونا يرافق آخر مثله.. لكن هذه القاعدة لم تنطبق على
مجنوني حارتنا حانا ومانا.. فأحيانا يشعر الإنسان أنهما
مجنونان، وأحيانا يشعر بأن أحدهما مجنون والآخر عاقل،
وأحيانا تقول عنهما: إنهما عاقلان بكل معنى الكلمة..
والحكمة الشعبية تقول لنا: "لكل مجنون عاقل" أو "خلّ
واحدا مجنونا والثاني عاقلا"!! لذلك يبدو أن أحدهما كان
عاقلا!!

كنت أراهما دوما معا، ينظران إلى الناس نظرات غريبة،
وأرى الناس يتجنبونهما، لأنهما شؤم كما يقال كثيرا.. لم
يفلحا في المدرسة، ولم يعرف أين يعملان.. يغيبان يومين أو ثلاثة في
الأسبوع، وبقية الأيام يسيران في حوارى البلدة.. وفي أحيان
كثيرة تسري الإشاعات عنهما.. فقد اتهما بسرقة الحمام..
وثمار الأشجار.. وبعض الخراف.. وسرقة النوم من عيون
الناس.. لكن لم يثبت عليهما شيء من ذلك.. وقد قيل:
إنهما لصان يغيران على القرى المجاورة.. ويسهلان الطريق
للصوص تلك القرى بالإغارة على بلدتنا!!

المرة الوحيدة التي تفاعل فيها حانا ومانا مع الناس كانت إثر العثور على جثة رجل غريب ملقاة على قارعة الطريق في حارتنا... تجمهر الناس في الصباح للتعرف على الجثة، جاء حانا ومانا، تباعد الناس متشائمين عن الجثة، رفع حانا الرأس من شعره.. ألقاه على الأرض بلا شفقة، وفعل مانا ما فعله الآخر.. قال أحدهما: "هذه جثة أبو زيد الهلالي من القرية المجاورة"، فأيده الآخر.. نفر في وجههما واحد من الناس في رهبة واضحة: "هل تريدان التنكيت؟! هذا وقته!! يعني من وجهة نظركما أن "أبو زيد الهلالي" عاد من قبره".. ردا عليه: هذا هو لقبه وليس اسمه الحقيقي.. اسمه الحقيقي عزيز أبو زيد شيخ حرامية "الدواسق" في بلدة الشيخ".. ولأول مرة يتيقن الناس أن حانا ومانا ضليعان بأمور السرقة، وأنهما ليسا مجنونين كما يعتقدون.. والحق أنهما لم يؤذيا بلدتنا بطريقة مكشوفة.. لذلك اعتبر أهل البلدة اتصالاتهم باللصوص قد تخدم البلد بطريقة أو بأخرى، لما عرف عنهما من الانتماء إلى معدن المجانين الرحيم أحيانا!!

* * *

لا يهمني كثيرا أن أكتب سيرة لحياة حانا ومانا.. فقط أردت أن أشير إلى ما نشعر به من ضياع بينهما، فرغم كونهما شخصا واحدا في التصرف، فإن وجودنا الهش، بسبب ضعفنا، بينهما يعني أننا بين فكي الكماشة، أو بين الثنائية الضدية أو بين البحر من ورائكم والعدو من أمامكم.. ونحن بلا سلاح أو قوارب نجاة!!

الخلاف الواضح الذي وقع بين حانا ومانا كان بسبب "شيمة" البدوية، وشيمة هذه فيها شيء من الجنون.. تأتي من البراري من عند العربان إلى شوارع بلدتنا تشتري الأغراض لعائلتها، تمشي في الشوارع كأنها فرس غير مدجنة.. ولأن الرجال يعرفون أنها تجاوزت الثلاثين دون زواج بسبب رعايتها لوالديها الشيخين بعد سجن أخيها "خميس" مدى الحياة لمقاومته الاحتلال.. لذلك تدفع الثورة لوالديها بعض المال مقابل سجن ابنهما.. تحضر إلى القرية فيتحرش بها الرجال مازحين أن توافق على أن تتزوجهم، فترد عليهم: الفرس ما يركبها الكديش"، أي أنها فرس بدوية أصيلة، وأن رجال البلدة القرويين الريفين "كديش" (بغل) مهجن من العلاقة بين الحمار والفرس!!

لم يعرف الناس سر الإعجاب والعلاقة المتناغمة بين "شيمة" وحانا ومانا، ولو أبيع للمرأة أن تجمع بين رجلين، كما يقول الناس، لجمعت بينهما، لذلك كان على شيمة أن تختار واحدا، ولأنها فيما يقال اختارت حانا الأكثر قوة على مانا الأكثر وسامة، فقد طارت روح الشر بينهما، فلم يعودا يظهران معا إلا في حالات نادرة، ويقال إن بعض الناس حاول الإصلاح بينهما ففشلوا، لهذا انتشر بين الناس مثل "بين حانا ومانا ضاعت لحانا"..

ربما تزوج حانا "شيمة" وسكن مع أهلها.. غاب مانا بعد هذا الزواج، فكثر الإشاعات حول نهاية العلاقة بينهما: قيل: إن حانا قتل مانا من أجل "شيمة". ومما قيل: إن مانا

ترك الديار عندما قرر حانا أن يتزوج "شيمة" فلم يعد له وجود.. وقيل عن حانا ومانا أنهما أخوان ولدتهما امرأة جاءت هاربة إلى القرية قبل سنوات طويلة، هربت من هناك بسبب أنها أضاعت شرفها، فكان أن أنجبت حانا ومانا معا، وعندما ماتت قبل سنوات كانا قادرين على الاعتماد على نفسيهما.. وقيل إن المرأة أنجبت واحدا.. وفي ليلة ظلماء جاءت امرأة لتعطيها ولدا آخر وضعت بطريقة غير شرعية، فربتها أمهما معا بعرق جبينها وبما يصلها من صدقات الناس في المواسم!!

هل كانت رابعة أم حانا ومانا أو أنها أم أحدهما؟! لقد قيل أشياء كثيرة عن علاقة مبهمة بين رابعة وهذين، خاصة أن رابعة كانت تترد على أمهما الحقيقية أو المزورة!! إن الأطفال لم يعرفوا أشياء كثيرة عن أسرار الكبار في ذلك الزمن، وما عرفته أنا شخصا آنذاك لا يتجاوز التخيل، علما بأن كل ما أكتبه هنا لا يتجاوز كونه اختراع خيال لا صلة له بالواقع بتاتا، وأنا غير مسؤول عن أية فكرة تربط بين خيالي والحقيقة، باستثناء فكرة واحدة أظنها صحيحة وهي أن حانا ومانا تحولتا بعد حزيان إلى ضابطين لفترة محددة في جيش الاحتلال.. بعض الناس قالوا إن ما رأوه في المقعد الأمامي من إحدى الدبابات يشبه حانا ومانا. وقال بعضهم: إن حانا ومانا الحقيقيين مختلفان في بعض الصفات والملامح، لكن أغلب الناس أكد أنهما في أصلهما يهوديان جاءت بهما أمهما في أحشائها إلى بلدتنا هربا من العار.. وانتفت هذه الفكرة عندما

عرف الناس أن اليهود ليس عندهم العار الذي عندنا!! فهم
كما قالت جدتي: ليس عندهم شرف ولا نظافة!! مثل الحمير
ينطون على بعض!!

للتذكير حانا ومانا في هذه الحكاية يختلفان عن حانا ومانا
في الصفحات التالية رغم التشابه!!

* * *

ليس غريبا أن يكون اسم بلدتي "بني نعيم" ! فالنعيم كما
تعرفون هو موطن الجنون؛ لأن المجانين كما يقال في نعيم،
لذلك تعني بني نعيم في التفسير الأعم بني الجنون، ولا يقتصر
الجنون على هذه الدلالة في الاسم، بل إن بعض أسماء أماكن
البلدة مستمدة من الجنون، ومن ذلك: خربة تفاح المجانين،
وادي الجن، طلعة المجنونة، جبل الجان، مراح الجني، جنان
المية، دار السعادين، كرم مجنون ليلى.. نستعيد بالله من
الجنون وتوابعه، آمين!!

خصصت إدارة سجن بلدتنا غرفتين للمجانين، غرفة يمنع
خروجهم منها بتاتا إلى ساحة السجن، وأخرى يسمح لهم
بالتجول ساعة يوميا تحت عين الرقيب الأمني، وأي مجنون
من هؤلاء يحاول الخروج عن الآداب العامة، يحجر عليه في
الغرفة الأخرى. هذا الإجراء الأمني لا يعني الحفاظ على
حياة المجانين أو حياة المساجين العقلاء المدنيين والسياسيين
الآخرين، بل يعني حفاظا على راحة رجال الأمن الذين يجنون
النوم كثيرا في مراكزهم المشرفة من عل على ساحة
السجن!! كان المساجين العقلاء يبعثون ما يزيد من طعامهم أو

شرابهم إلى المجانين، وقد انطبق على هذه البعثات التموينية في البداية شعار "ما هب ودب"، ثم أصبح العقلاء أو ما يظنون أنفسهم عقلاء يحسبون ألف حساب لصادراتهم المجانية، إذ أخذوا يقدمون أجود المأكّل والمشرب في أوعية نظيفة، ذلك لأن المجانين أو ما يظن بأنهم مجانين حساسون من أي شيء ينطبق عليه عنوان "الفضلات"، لذلك كافأت الإدارة مجنوننا واحدا بأن سمحت له بالتجول في الساحة ثلاث ساعات يوميا؛ لحرصه على أن يجمع أعقاب السجائر كلها، ويستخرج بقايا تبغها، ثم يعيد لفها بطريقة أنيقة في ورقة بيضاء رقيقة "أوتومان"، و"يعنقر" عليها بمتعة خاصة!! فأطلق عليه السجناء اسم المنتج، مثله في ذلك مثل امرأة الملوخية صاحبة إحدى قصص الجنون أيضا..

يروى أن رجلا تزوج امرأتين، فأحبهما معا، لكنه لم يستطع الصبر على التناحر بينهما مما نفص حياته، فاحتار فيمن يطلق منهن، بعد أن اختبرهن في مواقف عديدة، إلا أنه لم يجزم أمره. وفي أحد الأيام اشترى لإحدها ملوخية لتطبخها له غداء، واشترى للأخرى كوسا لتطبخه له عشاء.. تغدى عند صاحبة الملوخية، وذهب في المساء إلى الأخرى وفي ظنه أنه سيتعشى الكوسا المحشي.. فوجئ كثيرا عندما قدمت له الملوخية عشاء، أكل وهو يفكر أن يطلقها، إذ ظن أنها امرأة كسولة، قدمت له ما بعثته إليها امرأة الملوخية.. وقبل أن يطلقها سألها عن أمر العشاء. فقالت له: بينما كنت أمشي في الحديقة، وجدت عند شباك دارك الثانية "عرمش" الملوخية،

كان فيه ورق كثير، أخذته معي إلى البيت، فصنعت منه هذا العشاء، لأوفر لك الكوسا إلى غداء الغد. فرح في داخله لحرصها وشطارتها، وتذمر من الأخرى التي طلقها، محتفظا بصاحبة الكوسا، فأطلق عليه أهل بلدتنا لقب "موسى كوساية". . وما أن عرفت صاحبة الملوخية سبب طلاقها حتى جن جنونها، تمشي في الشوارع تردد: "علشان ملوخية البين لحقني سواد البين من موسى كوساية ومراته".

(2)

البلدة

المكان الحميمي الذي التصق به ابن عامر كثيرا هو "بني نعيم"، البلدة التي تنتمي إلى كل التواريخ الفلسطينية المنحدرة منذ الكنعانيين العرب إلى اليوم، فهي "كنعانيا" العاصمة الكنعانية، وهي "كفر بريك" المزرعة الرعوية الخصبة، وهي "الياقين" المكان الذي التقى به لوط وإبراهيم عليهما السلام بعد الدمار الكبير للقرى العاصية، وهي "بني دار" و"بني نعيم" نسبة إلى الصحابي الجليل نعيم الداري الأخ الأصغر لتميم الداري الذي ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على مدينة الخليل وما حولها!! وهي موطن الثورات التي قبرت: الرومان، والصليبيين، والتتار، والأتراك، والإنجليز، والصهاينة..

تتمدد بني نعيم على هضبة منبسطة كخيمة الصلاة تحيط بها الأودية من كل الجهات، تجري منها المياه في الشتاء الخصب إلى البحر المالح، آخذة معها أحيانا بعض الغرقى لتعيدهم بلا

حياة، لكن الخصب في أزمنة الخير يجعلها ربيعا ترتدي ثوبها الأخضر المزركش بالألوان كلها، كأنها عروس ترقص في ليلة زفافها!! وجمالها الأخاذ "يطيرّ العقول لمن لم يعرف كيف يحسن التصرف مع معشوقته الضائعة التي وجدها صدفة في واحة صحراوية تنتظره كأميرة لم يمسهها بشر ولا جان منذ قديم الزمان.. فهو إن لم يحسن التصرف مع كنزه الثمين طار عقله بلا رجعة..

روايات كثيرة تروى عن حراس كنوزها الخبيثة تحت الأرض.. أحد الرجال رصد كنزه مرات ومرات حتى خرجت له من بين الحجارة العملاقة فتاة جميلة ليس كمثليها في الجمال أخرى، رقصت له، تخلع ملابسها شيئا فشيئا.. وما أن وصلت إلى القطعة الأخيرة، حتى صرخ بلا وعي: " انستري يا مستورة.. أغمض عينيه، وما أن فتحهما حتى اختفت في جوف الأرض إلى الأبد.. بعد الصحوه أدرك غباء المنبث في تلك العبارة: " انستري يا مستورة"! ضيع عليه فرصة العمر.. لو أنه تركها تخلع القطعة الأخيرة، وحافظ على رباطة جأشه لتحولت مباشرة إلى كنز من الذهب، ولأصبح أغنى الأغنياء.. لكنه تعجل.. طار عقله.. نسي نفسه.. ضيع سنوات الرصد الطويلة هباء منثورا.. فقد ثمره الحياة المرفهة؛ فعاش فقيرا معدما، يعمل ناطورا للقصر الأثري الذي غاصت في باطنه فتاة الذهب التي لن تظهر له بتاتا.. هكذا يبدو الذهب للحالمين كنوزا نسوية مخفية في أعماق الأرض..

بعض الباحثين عنه اشتروا الآلات الطنانة . . طنت في أية بقعة وضعوها عليها، حفروا، لم يجدوا إلا التوافه، فأدركوا بأن وصية الجد: "في أرضكم هذه ذهب؛ ليس له أول من آخر. . . ذهب في الوادي والسهل والجبل!! ذهب ذهب!!" هي وصية تحمل سرا، لا بد أن يكشفه بعضهم يوما ما.

ومع ذلك تروى قصص كثيرة عن غنى رجال وجدوا جرار الذهب بالمصادفات. . يقال إن أحدهم بعد أن فجر من تأجر من العمال بالديناميت الصخور في أرضه. . تطاير الذهب مع الحجارة، افتعل صراعا حادا مع زوجه، لم يفلح العمال في الحجز بينهما، كانت النتيجة أن أعفاهم من متابعة العمل بعد أن أعطاهم أجورهم. في صباح اليوم التالي حمل الذهب، وسافر إلى دولة مجاورة، فغدا واحدا من أثريائها!!

آخر اشترى أراضي كثيرة، دون أن يحترف مهنة أو يعمل بأجرة عند الآخرين، فقليل إنه وجد جرة الذهب في أرضه القديمة. . رويت القصة هكذا: وجد العامل الذي كان يحرق أرضه جرة مدفونة، أخبره بالأمر، واتفقا على أن يأتيا معا في الليل، ليستخرجاها، ويقتسماها مناصفة، لكن صاحب الأرض خدع عامله، فسبقه إلى الجرة. أخذ الذهب، ووضع مكانه الحجارة. . لما جاء العامل، ذهب معا إلى الجرة. أظهر صاحب الأرض خيبة الأمل، لم يصدق العامل، والعامل كما قيل ابن أخته. . لم يصدق الكذبة، أخبره قلبه أن خاله خدعه، جن جنونه باستمرار وهو يراقب تحسن حال خاله تحسنا لافتا لكل الأنظار، وهو لم يحصد من أحلام الجرة إلا ذكريات الخديعة!!

شخص ثالث بنى عمارة فارهة، فأيقن الناس أنه وجد جرة، زعموا أنه أحضر خارطة الجرة من تركيا. نصب في الأرض التي اشتراها بتراب المصاري خيمة، ادعى أنها لشم الهواء النقي، والصحيح أنه كان ينام نهارا، ويحفر ليلا حتى وجد الكنز الذي تحول إلى عمارة وثلاث زوجات، وحياة بلا شغل أو مشغلة!!

حفر الناس أماكن كثيرة في الخفاء، وطمروها... بحث الرجال في الليالي شديدة السواد عن كنوز مدفونة في أحشاء الأرض.. اتهموا بأنهم وجدوا الكنوز الذهبية، يقال: إنهم لم يجدوا أكثر من الجماجم البشرية، وربما بعض الأواني الفخارية التي وضع القدماء فيها الماء والطعام للموتى في قبورهم!!

أشارت أُمِّي أحسن الله إليها إلى كومة الأشواك الصغيرة في أرضنا، قالت: "هناك تحت الأشواك يوجد باب مغارة، أدخلت ساقي بها ولم تقف على قرار، أريدك عندما تنهي دراستك وتعود إلى البلد أن تنصب خيمة فوقها، تحفر في الليل، وتغطيها في النهار، أنا متأكدة مئة بالمئة أن فيها كنزا، ربما يكون أحسن كنوز البلدة، أرضكم هذه جوهرة، أرض آثار، إن بحثتم وتعبتم في البحث لابد إن شاء الله أن تجدوا فيها كنزا زي الناس اللي وجدوا".

عددت لي أسماء كثيرة لأناس وجدوا كنوزا.. قلت لها: لا تصدقي هذا الكلام.. الناس ما وجدوا إلا الفخار والقطع

الأثرية الرخيصة.. والمشكلة أنهم يبيعونها لسماسرة اليهود الذين يزورون تواربخنا كلها بطرقهم الخاصة، يجعلون أرضنا أرضا لهم أبا عن جد.. وذكرت لها المقام الكنعاني الذي سرقوا منه حجرين باللغة الكنعانية وأعادوا الحجرين مزورين باللغة العبرية.. لكن أُمي وإن أدركت خبث الصهيونية، كانت حريصة على أن أجد الكنز لأغني.. وما عدا ذلك يمكن المناورة عليه.. فهي حرصت على إخفاء باب المغارة، وحرصت على حراسة الأرض من الطيور الطائرة، لم يعد يهمها إلا أن نحفر لنصل إلى الكنز.. لم تعرف أن المغارة حفرت مرات.. وأن اعتقادها بكونها مغارة بكر ليس له أصل.. فعصابات الحفر المتعاونة مع دائرة الآثار الصهيونية حفرت أماكن كثيرة.. ربما من ضمنها مغارة أُمي منذ زمن طويل.

في الصباح الصاخب هرولت أُمي تصرخ: قم، راحت الأرض، اليهود استولوا على الأرض.. أخذوا الأرض.. بدهم يبنوا المستوطنة على أرضنا..

هبيت وهب بعض الرجال.. وصلنا إلى هناك، عرفنا أن الطائرة أنزلت بعض الجنود المدججين بالسلاح ومعهم الأثريين الذين نصبوا دائرة أسلاك شائكة قطرها عشرون مترا كما تهيأ لي حول باب المغارة..

قلت غاضبا: مش معقول يا خواجا تعملوا مستعمرة بين بيوتنا، والله هذه آخرتها، ما ظل إلا بيوتنا تستولون عليها..

تزايد عدد الناس حولي، شعرت بأن علينا أن نواجههم بالحجارة، لا بد أن يسقط الشهداء من طرفنا..

لما تبين لي أنهم يحفرون المغارة، ترويت بعض الشيء، استمعنا إلى الأثري الصهيوني المسئول: "اسمعوا إحنا جايين هون نشوف إن كان في آثار عبرية ولا لأ، طبعا الإخبارية وصلتنا من ناس من بلدكم إنه في أرضكم آثار، إن وجدنا آثار عبرية، يمكن يصير كلام راح يبسطكم، وإن ما وجدنا، بعد يومين ثلاثة أو عشرة على الأكثر رايعيين نروح من هون، ونظمر قبل ما نروح مكان الحفر، ونخليه مثل ما كان.. الكلام مفهوم!!".

قررنا أن ننتظر قرارهم النهائي بخصوص نتيجة الحفر، وفعلا بعد ثلاثة أيام رحلوا، دون أن يطمروا الحفرة التي زاد قطرها عن عشرة أمتار.. جن جنون أمني، صفقت يدا بيد: "الله يحفر قبورهم عن قريب، هذه الحفرة بدها عشرين زلمة حتى يطمروها".. هب الرجال من هنا وهناك.. رددوا: لعيونك يا حجة، سنظمرها، ونزرعها، ولا نريد منك إلا "بكرج" شاي..

- عليها يا شباب..

- هيلا هيلا هيلا هيلا..

- هيلا.. هيلا.. هيلا هيل..

- الله حي.. الله حي.. الله حي..

ختامها مسك.. بكرج الشاي جاهز ومعه الفطور: زيت

وزعتر وزيتون ويبيض مقلي بالسمن وشراك ساخن وقلوب دافئة
بالخير والصبر!!

* * *

لن يشيخ طموح أمي، قالت لي ليلة: الكنز الحقيقي موجود تحت غرفة من غرف البيت، جدك الله يرحمه قال لي: في أرضنا هون جرة عثمانية مليانة ذهب، أنا متأكدة أن جدك دفنها لما كان الجيش العسلي في أيام "السفر برلك" لا يتركون على الناس ملابسهم، الكنز كما أعتقد موجود في هذه الغرفة التي نجلس بها، لازم نخلع البلاط ونحفر، ما أحسن الحفر في الغرف! لا منشاف ولا مندرى.. قلت لها: غير ممكن أن أحفر البيت من أجل كنز وهمي، أنا يا ستي لا أريد الكنز.. قالت بشيء من الحسرة: أنت ما عندك طموح، لو كان الكنز بين عينيك ما راح تشوفه..

نسيت أمي الكنز.. أو ربما تناسته.. انشغلت زمنا بكنز الزراعة، لم تعد تصبر على مساحة أرض فارغة من زراعة الزيتون.. في كل مكان من أرضنا تزرع.. قلت لها مازحا: أليس الزيتون هو الكنز الحقيقي.. ردت بشيء من التذمر: سأعلم أولادك كيف يبحثون عن كنز جدهم..

* * *

أخيرا وجد الناس كنزهم الحقيقي.. كان هذا الكنز ذهباً أبيض، ذهب الحجارة البيضاء الناصعة التي تستخرج من باطن الأرض لبناء بيوت الحجر البيضاء الجميلة، ويصدرون إلى

الأماكن من حولهم . لكن هذا الكنز الثمين حول السجادة الخضراء إلى قطعة شاش بيضاء متسخة، فتحولت أوراق الزيتون الخضراء التي تمتلئ بها بلدتنا إلى أوراق مصفرة بالغبار وعوادم الشاحنات!!

جاءنا ذات مساء صاحب محجر، قال: بيتكم موجود فوق أرض خصبة بالحجارة الممتازة، سنهدم البيت، ونبني لكم بيتا واسعا في أرض مرتفعة أحسن من هذه الأرض، وسندفع لكم ربع الدخل الناتج عن تصنيع الحجارة وبيعها . قبل أن أتكلم وافقت أمي وقالت: أوافق على شرط أن تكون الجرة المدفونة تحت البيت من حقنا . استغرب الحجار، وظن أن المسألة مزحة، لم يتوقع أن تبادر أمي إلى الموافقة بهذه السرعة، ظن أنه سيحصل على موافقتي مقابل رفضها . قال ضاحكا: ليس لنا إلا الحجارة، وما عدا ذلك فهو لكم . فرحت أمي، وأجبرتني على أن أوقع العقد مع الحجار . أنا راقبت الديناميت الذي فجر الدار بالحسرة . وهي راقبت بعيون النسر الجرافات التي أزالَت ركام البيت والتراب الذي فوق الصخور . كانت تطمح أن تجد الجرة . لكنها لم تجد شيئا، بعد ذلك صمتت عن ذكر الكنز، ربما أدركت أن جدي قصد بالكنز الحجارة ناصعة البياض!!

جن جنون الناس وهم يبحثون عن الحجارة البيضاء. تحولت البلدة إلى حفر متناثرة في كل الأمكنة، اتخذت الحجارة مستويات متعددة من الجودة، وتفاوتت

الأسعار، وتنوع أشكال البنايات.. انتشرت السيارات أمام
الفلل، ضاقت أوقات الناس، كثرت المشكلات والتناحرات،
لم يعودوا يفرطون بشبر أرض من أجل طريق عام، فالشبر
كومة فلوس كما يقولون..

الكنز الأبيض سلبهم عقولهم.. الاستثمار أكل قلوبهم
بالغيرة والحسد والبحث عن المصالح والمضاربات،
والاتفاقيات المعقدة.. يا ناس يا عالم يا هو لن تأخذوا شيئاً
من هذه الكنوز إلى قبوركم التي بنيت بالحجارة غير الجيدة،
حتى القبور التي غدت ساكنة في وسط البلد لم تسلم من
محاولة التخلص منها ليتسنى استثمار صخورها.. لكن كيف
يمكن أن تنقل إلى أرض لم تعد بلا ثمن!!

النساء اللواتي اتخذن مجالسهن المرفهة على الشرفات
العالية غدون يتحدثن عن النعمة والنعيم والغبار الذي يهجم
على أثاث البيوت، كما ينتج الحناجر الآنة بالربو..

يتنصص كنز الحجارة بمستعمرات الاحتلال التي تتربع على
الأراضي المرتفعة الأجود حجارة في العادة، لكن لا بأس
فاليهود يشترون الحجارة ويبنون مستوطناتهم.. بحجارتنا نبنى
مستوطناتهم، أليس هذا جنونا أعمق من أي جنون؟! نقذف
الحجارة الصغيرة على دباباتهم في مواجهة البنادق
والرشاشات، ونبيعهم الحجارة الكبيرة لبناء مستوطناتهم..
عجيب أمرنا في مقاومة عدونا!!

أليس من حقنا أن نتوقف لمحاكمة ذواتنا؟! لماذا هذا

الجنون الأحمق؟؟ أين مصيرنا المنتفض على مصالحنا الذاتية؟! أهو إلى الهاوية!! هذه أسئلة آتة طرحها ابن عامر على نفسه، ماذا بإمكانه أن يفعل لقهر التورط في خدمة العدو؟! لا شيء!! الناس لم يعرفوا معنى المقاومة الحقيقية، لم يعرفوا أن مصلحة الوطن فوق أية مصلحة، المتظاهرون من الطلاب الذين لا تحكمهم شروط الارتباط بمصالح ذاتية، يقاومون، يتصارخون، يلقون الحجارة، يقدمون الشهداء!! وعملنا يبنون مستوطناتهم!! وإن لم يبنوا فكيف يعيشون!!

هناك وقعت مذبحه بين الناس على فتح الطريق بين الدور.. طوشة من أجل إغلاق الشارع.. مشكلة تدخلت فيها البلدية لفض النزاع بين الجيران على النسب المقررة للشارع بين دورهم.. مات ثلاثة أشخاص من الطرفين بسبب الصراع على قطعة الأرض الفلانية.. ذلك الرجل حمل أخته إلى قبر أبيهم، وقال لهما: سأدفنكما هنا إن طالبتما بميراثكما.. الآخر أجبر أخته على أن تتنازل له عن الأرض وإلا طلقها من زوجها.. الأب حرم ابنه من المرأة الأولى من الميراث، وذلك، وذلك، وذلك..

لماذا يا ناس أكلتكم أصابع الأنانية؟! العدو من أمامكم.. والموت من ورائكم، فماذا أنتم فاعلون؟! لقد وقعتم بين حانا ومانا.. ضاعت لحاكم.. ضاعت عقولكم.. جن جنونكم.. وابن عامر لا يقص سيرة ذاتية؟! إنه يحكي سيرة بلدته.. سيرة الخراب الذي حول السجادة الخضراء إلى أرض غبراء أكلها

البور والحفر والشاحنات والشوارع الضيقة والطوش الكثيرة
وبقايا الجوع وبيع الحجارة للأعداء!!

* * *

ينحدر من جنوب البلدة انخفاض أرضي يصل إلى البحر
المالح الذي يضطجع فوق أخفض منطقة على الكرة الأرضية،
عندما يقولون فوق مستوى سطح البحر أو تحت مستوى سطح
البحر فإنهم يعنون بحرنا المالح، أو كما سموه البحر الميت،
لا يعيش فيه أي كائن حي من شدة ملوحته، هو البحر الوحيد
الذي يستطيع فيه أي إنسان أن يسبح دون معرفة مسبقة
بالسباحة، فقط على السابح أن يلقي جسده على الماء بحذر
شديد، خوف دخول الماء إلى عينيه، وحينها يتولى البحر أو
هو كفيل بأن يحملك على ظهره، وبإمكانك أن تضع مخدة
تحت رأسك وتنام ساعات طويلة دون الخوف من الغرق، إذ
لا توجد إمكانية للغرق بتاتا ما دمت حافظا لتوازنك
وهذوئك!!

على بداية المنحدر، وقبيل الدخول في طرفه من جهة
البلدة توجد مساحة بيضاء من الأرض، سماها الناس
"العرقوب الأبيض" لشدة بياضها، لا تنمو فيها شجرة ولا
عشبة، فقط أرضها بقايا حجارة جيرية بيضاء، يقول الناس
إنهم بنوا بيوتهم القديمة بهذا الجير الأبيض..

العرقوب الأبيض هو المساحة التي تفصل بين الأمان
والخوف، فما قبله الأمان، وما بعده الرهبة، إذ يشكل

المنحدر الشاسع انحدارا متدرجا بهدوء إلى البحر المالح الجاثي على ظهر الخسف الذي خسف به الله سبحانه وتعالى قوم لوط؛ لذلك سموه البحر الميت لكثرة ما مات فيه من الفجار..

يبنى الناس على طول أرض العرقوب الأبيض، أو ما يسمونها أحيانا "جرون البطنة" الشواهد.. والشواهد هذه عدة حجارة؛ ثلاثة أو أربعة أو خمسة صغيرة بعضها فوق بعض، يتشاهدون وهم يبنونها، فمع كل حجر يضعونه فوق أخيه يقولون: أشهد أن لا إله إلا الله.. مشعرين ربهم سبحانه وتعالى أنهم يبنون ولا يهدمون، راجيه أن يساعدهم على البناء أينما ذهبوا.. وأن يبعد عنهم حانا ومانا اللذين يضيغان لحانا كما يقولون؛ إذ ما زال الناس يعتقدون بأن حانا ومانا فرخان من بقايا قوم لوط عليه السلام الذين دمرهم الله عن بكرة أبيهم، بما فيهم امرأته التي كانت من الغابرين، لحقتها صخرة ودفنتها في جوف الأرض، فإلى الآن يشير الناس إلى صخرة ضخمة قائلين: هذه الصخرة لحقت امرأة لوط العاصية، دفنتها في جوف الأرض، لو رفعنا الصخرة لوجدنا بقايا عظامها المهروسة.. من يستطيع أن يزيح صخرة؟! يعجز عن زحزحتها خمسون جملا.. يبنون ويتشاهدون كلما مروا من قربها ليؤكدوا لربهم إيمانهم وبعدهم عن العصيان!!

يبدأ المنحدر فعلا من الوادي الذي يقبع بين جبلين هما طرفي الهضبة التي تتمدد عليها البلدة، ولأن اليهود يستوطنون

كالغربان فوق المرتفعات، فقد فرشوا أسلاكهم فوق رؤسي الجبلين، وبنوا على الجبل الغربي مستوطنة، لكنهم لم يتمكنوا من البناء على رأس الجبل الشرقي، انسحبوا خاسرين بعد ثورة الناس ضدهم والهجوم عليهم بالحجارة، إذ من حسن حظ الجبل الشرقي أنه قرب جبل الصوان، وجبل الصوان هذا يمتلئ بالحجارة الصوانية التي تتقادح نارا لكونها مسنفرة من جميع جوانبها كحد السيف..

هنا قال الناس إن حانا ومانا اللذين اشتريا الجبل الغربي من الأرملة باعاه لليهود، واستثمرا أمواله في حفر المحاجر في البلدة بأسماء مستعارة .

أما صاحب الجبل الشرقي فلم يبع جبله، فبقي فقيرا مدقعا، يعمل ناطورا في عدة محاجر عند حانا ومانا وشركائهما..

قال الناس في ذلك أقوالا كثيرة.. المهم أنهم فسروا انسحاب اليهود عن الجبل الشرقي بأن صاحبه "عمي" أحسن الله إليه لم يبعه، إذ عرض عليه الحاكم العسكري أمام الناس أن يأخذ أية أموال يريدها، لكنه رفض، غضب الحاكم العسكري، قلب طاولة القهوة والشاي على عقيبه، همر في وجوه الناس، كشر، هدد وتوعد، وفي النهاية رحلوا خاسرين عن جبله، إلا أن البيوت الغريبة تصاعدت فوق الجبل الغربي الذي أنارت فيه الكهرباء، وجرى الماء، وتوسعت الشوارع المنظمة المسفلتة.. لا شيء من ذلك لبلدتنا، كما أنهم منعونا من البناء أو حفر الآبار على الجبل الشرقي.. قيل إن حانا ومانا اثنان من ثلاثة يقطنون المستوطنة أو المستعمرة أو

"القرادة" كما يقول أهل البلدة، والقرادة حشرة دموية كريهة، لا تموت بسهولة، تعيش على جلود الماشية، تمتص دماءها، تسحبها من جسد الحيوان فتترك حفرة مدمية، تدوس عليها فيتدفق الدم أسود من جسد لا يموت بسهولة!!

* * *

ندم أهل البلدة كثيرا لأنهم رفضوا بيع الأرض لتكون جامعة أهلية لصالح المنطقة كلها، ظنوا أن المسألة خدعة، وأن شراء الأرض تحت هذا المسمى ليس سوى إطار لبيعها عن طريق السماسرة إلى الأعداء، لكن تبين لهم فيما بعد أن حانا ومانا اللذين كانا من أشد المعارضين للبيع عرفا أن بيعها لبناء الجامعة يعني أن تضع فرصة السمسرة من وراء مستعمرة استيطانية مستقبلا، ستوفر لهما الأرباح المضاعفة، لذلك ضاعت الفرصة الثمينة من بين يدي البلدة، كما ضاعت فتاة الرجل رحمه الله، عندما قال لها "انستري يا مستورة!! أكان عليه أن يفعل ذلك؟! أما كان يستحق الأمر منه أن يستمتع بجمالها قبل أن تتحول إلى كنز؟! لو صبر لكانت هي التي هرعت إليه، بعد أن تصير امرأة حقيقية، فتقول له: " استر عليّ يا مستور! الله يستر على ولاياك "، حينها سيضع عباءته على جسدها العذري، ويقول لها: أيتها الجارية القبرصية أو التركية أو الرومانية.. بل أيتها الجارية الكنعانية: إنك زوجي على سنة الله ورسوله، لك العهد والأمان، فلا تخافي.. وصلت إلى موطن الدفء والأمان!! لن يكون بمقدورها أن تختفي، ليس أمامها إلا أن تتحول إلى كنز أو إلى امرأة

حقيقية.. حينها قد يصحو من نومه فلا يجد جواره سوى بقايا طيف امرأته التي رحمها الله!!

تنبه خالي - رحمه الله - بنظرته المستقبلية الثاقبة للأمر الجلل، قرر بعد أن عينه مجلس البلدية ناظورا لمقام سيدنا لوط عليه السلام، ومغارة بنات الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعا، ويثر مائهن، ومصلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكل هذه المقامات عملت في عهد السلطان خليل بن قلاوون رحمه الله.. قال خالي - رحمه الله - إنه لا يجوز أن يبقى مكان المقامات بلا أشجار وسور على الداير يحميها، يجب أن نزرع جبل ياقين بالأشجار المثمرة وخاصة الزيتون . وجبل ياقين هذا هو المكان المرتفع جدا في بلدتنا، يشرف على المنحدر الموصل إلى البحر الميت أو المالح، وبإمكان حامل المنظار أن يرى بيوت أهل الكرك شرق الأردن من هذا المكان، ولا أظن أن خالي - رحمه الله - كان يرى "القمل" على مزاود أهل الكرك بعينه المجردة كما "ينكت" عليه أهل البلدة، الصحيح أن المسألة بحذافيرها تعني عنده رؤية البصيرة لا البصر، لذلك حمى ببصيرته الثاقبة منطقة "ياقين" من مصادرة اليهود لها، فالتفوا حول المنطقة من الجانب الآخر، بنوا مستوطناتهم على الجبل المجاور، أي على الجبل الشرقي المقابل للجبل الغربي، ومع ذلك لم تنقذ زراعة الأشجار "ياقين" الكنعاني الذي التقى على أرضه لوط مع خاله إبراهيم عليهما السلام بعد الخسف، لتكون أول نظرة للوط

خلفه من فوق هذا الجبل، رأى السماء مغبرة، والأرض هائجة مائجة، فأيقن بوقوع العذاب الكبير.

تحولت بلدتنا من كنعانيا إلى يافين، ثم لم تسلم في عهد الغزاة صهاينة القرن العشرين من البطش والتنكيل. . زوروا التواريخ واعتبروا المنطقة إسرائيلية، قالوا عن مغارة بنات الحسن والحسين، مغارة بنات لوط، وظنوا الظنون حولهما بخصوص علاقتهما بأبيهما. . . نعوذ بالله مما يظنون، واللعنة على العباد الأفاقين الجاحدين، الحريصين على أية حياة!!

لما عجز اليهود عن مصادرة الأرض الوقفية الإسلامية كلها، صادروا ما حولها، تحالفوا مع بدو أصهار حانا ومانا اشتروهم بالسكر والطحين والأرز، فاستولوا هؤلاء بدورهم، على أرض شاسعة من أراضي بلدتنا المشاع بعد أن تسلحوا بأسلحة الأعداء. استولوا على أرض "وادي المنطار" السيل الواسع العميق، تتجمع فيه المياه من كل فلسطين، وتنساح إلى البحر المالح، وفي أيام الجفاف، تتلاشى المياه، فتظهر بعض الجثث التي حملها السيل من مناطق بعيدة، فتكون الفرصة سانحة لبدو حانا ومانا كي يلتقطوا بعض المصاغ المحمولة مع الجثث، يأخذون أيضا بعض الأحمال التي حملتها الحمير التي جرها السيل مع أصحابها أو بدونهم!!

يبدو أن سيل وادي المنطار أصبح جزءا من ذاكرة الأطفال كلهم، خائفين مرتعبين، لا تقتربوا من السيول مهما كانت،

حتى وإن كانت جافة والجو صحوا، فأنتم لا تعرفون إن كانت تمطر على بعد عشرات الأميال .

رويت قصة مأساوية عن الغنم التي كانت ترعى في أحد السيول ربيعاً، جاءها الماء هادراً كالرعد، في أجواء مشمسة، حمل السيل في جوفه الراعي وغنمه، والحمار الذي يحمل مئونه .

روى جدي - رحمه الله - كيف أنقذته شجرة بلوط علقت بصخرة عندما اصطدم بها أيام الثلجة الكبيرة، حملها السيل من مكان بعيد، ولم تفلح بإمسك الحمار، فأخذته مياه السيل بما حمل .

ومما روي أن السيل ابتلع مرة جملاً بحمله، وما أكثر ما فعل ذلك، فصار الناس يعبرون عن ضياع كل شيء، بقولهم "أخذ الجمل بما حمل" دلالة على عدم بقاء أي شيء!!

السيول في بلدتي تعني في الشتاء تحديداً سيل وادي المنطار!! لم أكن أجروء على المشي إلا قرب صخرة منزرعة في السيل أو قرب شجرة ممتدة الجذور في قعر الأرض، أو قرب جدار صخري طبيعي كونه حركة السيل الهادرة .

بقايا المياه على تجاويف السيول في بدايات الربيع لذيدة للعطاش الذين يسرون في البرية أو المسفرة كما كنا نسميها، بحثاً عن أعشاش الشنار والحجل والحمام . . نكش الحشرات الميته، والمتطايرة، نحرك الماء بأيدينا لنبعد ما يطفوا على سطحها، نشرب الماء بلونه وطعمه ورائحته، فنشعر بسعادة الأطفال الذين وجدوا الماء عذبا، وإن كان عكرا . نتخيل

المغامرات وقسوة العيش والتهيه في الصحاري على طريقة
الفدائيين والصعاليك!!

في ذلك اليوم عندما كنا أربعة عائدين من رحلة المغامرة
على ضفاف سيل وادي المنطار، لم تتجاوز أعمارنا الخامسة
عشرة، اقتربت منا سيارة بيضاء بنمرة إسرائيلية صفراء يركبها
"أبو نعيم" مدير المخابرات الصهيوني المختص ببلدتنا؛ سمى
نفسه اسما غير حقيقي، اشتقه من بلدتنا.. اللعنة عليه، كانت
تجلس بجانبه فتاة جميلة، تقول للقمر "قم فتجلس مكانه"،
وربما تفعل ذلك مع الشمس. تمحك بنا، عرفنا أنه لا يوجد
أخف من دمه سوى دم "البق"، فتصوروا سماجة وجهه..
أوقف السيارة بجانبنا، حيث الشارع الترابي لا يتسع إلا لسيارة
وبجانبها جمل بدون حملة.. قال: "وين البنات؟؟ أمن
المعقول أن تخرجوا في هذا الجو الربيعي الرومانسي من غير
بنات.. شوفوا أنا لا أفارق صاحبتني، دائما معي؟؟ وبعدين
إذا بدكم مثلها أنا عندي بنات أجمل منها، بس بدي تقولوا لي
وين الفدائيين.. وإذا بدكم تجربوا أنا ما عندي مانع تروح
صاحبتني معكم!!". كلماته حجارة داكنة آسنة ثقيلة تنهار على
رؤوسنا!! قلت: خل شرموطتك إلك.. شتم، توعد أن
يستدعينا إلى العمارة واحدا واحدا، ليعرفنا كيف يربينا!! لم
نكن نحمل هويات حتى يعرف أسماءنا، قلنا له أسماء
متخيلة!! سجلها وهو يعرف أننا نخدعه حفاظا على ماء وجهه
الذي يصب في مستنقعات الحمى!!

* * *

من أين أبدأ وإلى أين أنتهي من حديثي هذا معكم عن بلديتي؟! هل أحدثكم المزيد عن أراضيها، وعشائرها، وحكاياتها؟! لم أخبركم أن خالي العمراوي تمرد على حكم السلطان عبد الحميد، وأعلن بلديتي وما جاورها مقاطعة مستقلة لا تخضع لحكم العثمانيين، وكانت النتيجة أن قبضت عليه عساكر العسملية، كما تقول أمي أحسن الله إليها، وأخذوه إلى الأستانة، وقيل إنه نفى إلى سيبيريا، فأكلته دبة الثلج في أيام جوعها..

في عهد الإنجليز ثارت البلدة، حاصرتها عساكر الفرنجة واليهود، تحولت بواديها وتلالها إلى ساحة معارك.. قيل إن عبد القادر الحسيني بعد أن خسر معركة القسطل لجأ إلى مغر بلدتنا، فحدث فيها معركة شرسة استشهد إثرها ونقل إلى مكان آخر. بل ما زالت مغر العرقوب الأبيض تشهد معارك دائمة بين جيش الاحتلال الصهيوني، وبين الثوار في المغرب والطيران، وبقايا الكثير من هياكل العظام ظلت شواهد خلف الضباع التي أكلت جثث موتى الأعداء.. لقد قذفت أحشائي عندما رأيت "حانا" يحمل ساقا آدمية، يعرضها عليّ بكل جرأة..

ليست الفكرة هنا الحديث عن مفاخر، بل لا بد من القول: إن ما كان يحدث بين الناس من صراعات داخلية قبلية أجهض القوى الثورية الجادة، فلم يكن الناس في أحيان كثيرة يشعرون بالأمان لما بينهم من صراعات سواء بين عشائر بلدتنا أو بين بلدتنا والبلدات المجاورة، مما جعل المرء الحريص

على تحضر قومه يشعر بالاغتراب والابتئاس من رواية العشائر تأكل العشائر أكلا كئيبا هبت في هشيم يابس بسبب ريح سموم.. وفي أيام كثيرة ينتقل مخاتير البلدة ووجوهها من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا، ومن هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هناك.. يأخذون "العطاوي" أو الهدن، ويكفلون "الكفلاء"، يحجزون بين المتخاصمين، يضعون فناجيل القهوة، لا يشربونها إلا عندما يعدهم من جاؤوا يطلبون منه حل المشكلة أن يحقق لهم ما جاؤوا من أجله بحول الله وقوته، ولو كان طلبهم رأس أغلى أولاده!!

* * *

البلدة تنقسم إلى قسمين: القسم الشرقي الذي يضم عشائر الحمايس، والزنود، والطرقاوية، وهم عشائر متخاصمون فيما بينهم. والقسم الغربي وهو القسم الأكثر عددا، وفيه تبرز عشيرة النصراوية.. قامت الحرب الكبرى بين العشائر بسبب المزيونة "دانة" بنت عشيرة الطرقاوية التي أحبها عامر النصراوي والدي، فأنا كما تعرفون ابن عامر ودانة أمي، وليس لي يد فيما حدث، بل أنا الثمرة الشرعية الأولى لما قام به والدي عامر النصراوي رحمه الله من مغامرة اختطاف دانة الجميلة بنت الطرقاوية وتزوجها على سنة الله ورسوله.

قامت الحرب بين القبائل لما يزيد عن خمسين عاما، قتل فيها ما يزيد على خمسمائة فارس بما فيهم والدي وأخويه، تدخل للصلح فيها الأتراك وبعدهم الإنجليز، دون جدوى..

انتهت الحرب أو توقفت بسبب احتلال اليهود الأخير، إذ ليس من المعقول أن يتحارب الناس فيما بينهم، وهم يدركون أن عدوهم ينمي خلافاتهم، فصارت الهدنة التي يسميها أهل بلدتي "العطوة" قائمة بين الناس إلى أجل مسمى، لا تلبث أحيانا أن تنبت رأسها، فترتد إلى حاضر الناس الخلافات القديمة على استحياء، ويكون لحانا ومانا ومن والاهما الدور الأكبر في إشعال فتيل الفتنة ودق طبول الحرب بحجة الحرص على المصلحة العامة!! وبالذات تجددت الفتنة عندما زوج النصراوية بنتهم "حلية" لواحد من شباب عشيرة الطرقاوية، هنا وجد حانا ومانا ومن والاهما الفرصة متاحة لرش السكر على الأموات، وري جذور الفتنة بماء آسن، فاتهموا بنت النصراوية في شرفها، تأكيداً لما اتهمت به "دارة" في الماضي. قامت الخيول من مضاجعها، تلاعبت أيدي الناس بالأسلحة القديمة.. ولولا أن ستر الله، وانحلت عقدة المشكلة لعادت "حليمة" عن طريق "حلية" إلى عاداتها القديمة، معيدة إلى الأذهان حكاية دارة والدماء التي سالت في الوديان بما فيها وادي سيل المنطار!! صارت ديرتنا ديرة حرب، مطلعها: " يا دارا دوري دوري "، ومعنى دوري دوري كما يفهما أهل بلدتنا المبالغة في الدوران في الشوارع. للق الحنك أي للكلام الكثير، ظلت دوري دوري تترصد الأمكنة كلها بحثاً عن أفراد القبيلة المعادية!! هكذا ارتبطت أغنية "يا دارا دوري دوري" بجنون الحرب القبلية بين عشائر بلدتنا!!

يا دارا، دوري دوري.. ظلّ دوري فينا!!

يذكر تاريخ بلدتنا الكبير في صفحات طويلة من مقدمته الحرب الضروس التي وقعت بيننا وبين بلدة السواعة المجاورة.. يقول الراوي: أوقعت آخر هجمة شنتها بلدتنا على البلدة المجاورة أربعين قتيلا.. وبعد شهر جاء الصريخ من البلدة المجاورة: "قمركم انسرق يا نعيمية، سرقوا السواعة قمركم.. شن أهل بلدتنا هجمة غير مخطط لها على بلدة السواعة لاسترجاع القمر الذي بدا لهم مسروقا، صدقوا الصريخ، لكنها المفاجأة!! ترصدهم السواعة وسط الطريق، في منطقة "العربية"، وكانت النتيجة أن قتلوا من بلدتنا أربعين فارسا، ومعهم كلبهم الذي أرجح كفة السواعة على كفتنا في ميزان العشائر، ومن حينها سمي موقع المعركة "ثغرة الزايد" أي أنهم رجحوا كفتهم بقتل كلبنا، وفي رواية أخرى أن بلدتنا هي التي رجحت كفتنا بقتل كلبهم ورجل آخر معه..

إن الثأر كما يقول حكماء بلدتنا لا يموت أبدا، فهم يكررون حكاية الذي قتل شخصا ضربه كفا قبل أربعين عاما، فقالوا له: استعجلت لما أخذت بثأرك بعد أربعين عاما!! حكايات بلدتنا تثير الجنون، والمحاجر التي حولت "ثغرة الزايد" إلى حفر متناثرة تبعث هي الأخرى على التأمل المجنون.. لقد عاث حانا ومانا ببلدتنا كلها فسادا.. كيف تغيرنا وصرنا أبطالا بعد مجيء الانتفاضة.. أحيانا لا بد أن

نختلف وتتقيح جروحنا . . فيحدث إثر خلافاتنا السياسية ما يعكر صفو علاقاتنا الاجتماعية التي كانت في الماضي داكنة بصراعاتنا القبلية!! ومع ذلك فنحن نحرص على أن نرتقي سلم الحياة بحرصنا على ثورة الحجارة المدعومة بالكفاح المسلح لتحرير كامل ترابنا الذي دنسه إخوان القردة والشياطين، كما صرح بذلك خطيب جامعنا أعانه الله على نتف ريشه بأيدي سلطتنا!!

(3)

حانا

جاءني إحساس مر غريب بطعم العلقم بعد موت العنكبوت
البشع الذي قتله قبل سنوات طويلة، كنت في الخامسة عشرة
من عمري، لأول مرة في حياتي أشعر بأنني تحولت إلى شيء
يشبه الكابوس المرعب..

تمردت على العالم الطفولي البريء الذي سكن داخلي،
رغما عني، خاصة عندما كانت أمي الغريبة الأطوار تقص علي
حكايات عالم مجهول بعيد، تصورتها فيه ضحية رجل بشع
اغتصب حياتها، فأنج فيها الشقاء الأبدي الذي هو أنا دون
أن تخبرني هذه الأم الغريبة عن مأساتها شيئا، لكن ملامح
وجهها التي تغتسل بالحزن أخبرتني أكثر مما تتوقع!!

لم تحدثني أمي عن أخي مانا، لا أعرف كيف جاء إلى
الوجود، كان أصغر مني بخمس سنوات على الأكثر، أوصتني
به كثيرا؛ أن أحافظ عليه من أي مكروه، خصوصا من
العناكب التي كانت تحاصرنا، أوقات نضوج العنب، في تلك

السقيفة اللعينة التي أكل حصاها ظهورنا . تعمل أمني ليل نهار
في خدمة سيد الكرم الذي يظهر لنا عطفًا مزيفاً . وفي بعض
الليل تخطط الملابس أو ترقعها!!

كيف تريدونني أن أكون إنسانا سويا بعد أن تشربت الحقد
مع كل حبة عنب خضراء أو حمراء أو صفراء أو سوداء أو
متداخلة الألوان . يقولون: حانا لا ينتمي إلى بلدتنا . هذا
ما رددته أصدقاء طفولتي . . اللعنة كيف أصفهم بأصدقاء
الطفولة . . إنهم على الوجه الأصح أعداء طفولتي . . من قال
إنني عشت طفولة سعيدة حتى أتوقع العلاقة الحميمة بيني
وبينهم . . صحيح أنني رافقت ابن عامر أحيانا . . ثم انتهت
العلاقة منذ اللحظة التي حملت فيها ساق الآدمي البالية ،
لأفجع طفولته الباهتة ، كنت أحقد عليه لأنه ابن بطل مزيف ،
قلت له : ربما تكون هذه الساق ساق أبيك الذي قتله أخوالك
بعد أن خطف أمك . أنا وأنت سواء ، لا آباء لنا . . ما أكثر
الأطفال الذين بلا آباء جراء الحروب التي قامت في "بني
جحيم" أنا أسميها "بني جحيم" . . وهم يسمونها "بني
نعيم" ، فسيان بيني وبينهم . . كلنا في الهوا سوا ، أو بالأصح
في "الخرا" سوا ، أرجو ألا أخرج شعوركم بهذه اللغة
الجريئة . . المهم أنني لم أعد أنتمي إلى بني الجحيم أو بني
النعيم إن شئتم ، أنا غريب ابتداء من شعر رأسي إلى أطراف
قدمي . . أمني قبل ذلك غريبة ومشوهة ، أخي حانا غريب هو
الآخر ، لكنه يبدو أحيانا كأنه لا ينتمي إلى أمني وأنا . . أو
ربما هو أحد أسرار أمني التي ولدت مشوهة بعد أن جاءت إلى
هذه البلدة اللعينة . .

سأعرف كيف أجعل هذه البلدة لا تقول إلا حانا في كل صغيرة وكبيرة من أمورها، عندما قتلت ذلك العنكبوت، وانتفض انتفاضة ما قبل الموت.. شعرت أن روحه العنكبوتية انتقلت إلي.. حينها شعرت أن حانا لم يعد الطفل البريء.. هذه البراءة ربما تكون لمانا الذي يشعرني أحيانا كثيرة أنه ينتمي إلى هذه البلدة الجحيمية التي يكبر ابتعادها عني، كلما تأملت وضعي بين أهلها..

* * *

يجب أن أشق طريقي لوحدي!! كيف؟ على الروح العنكبوتية أن تنغرس في داخلي فتورق ثم تثمر، أن تبدأ من اللحظة التي تجعلني حانا الجديد ابن أمه الغريبة كما يسموني.. اللعنة عليهم... كانت أمي الغريبة تشكل الموقع الحقيقي لإظهار ضعفي.. أين القوة.. إنها في شيء حولي.. علي أن أبحث عنها صباح مساء!!

ما أن سمعت الحقير "أبو نعيم" يدفعنا ساخرا، جادا أو غير جاد، إلى أن نضاجع الفتاة اليهودية الجميلة حتى شعرت أنني أنتمي إلى عالمه الموبوء.. أنتمي إلى فخذي "إستر" المومس الصهيونية.. كان علي أن أقبل منذ تلك اللحظة لأجرب أو لأمتحن صدقه، ربما شاهد ريالتي تتساقط من فمي شوقا إلى جسد لم أر مثله في حياتي من قبل.. ربما غمزني.. ربما شعر أنني أحتاج إلى خلوة لكي أجرب على الأقل.. قلت له اسمي "حنانيا"، استغرب الاسم، لكنه ادعى تصديقي.. ليس في هذه البلدة اللعينة كلها اسم حنانيا، ومن أين لها هذا الاسم الذي هو أقرب إلى الأسماء العبرية..

فكرت كثيرا بالطريقة التي توصلني إليه؛ لأفترس صاحبه الجميلة.. كثيرا ما درت في شوارع البلدة لعله يصادفني وحيدا، فيجدد عرضه، فأقبل بشروطي أنا لا بشروطه هو، شروطه: ربما أهمها أنه يريد بعض الأخبار عن الفدائيين، وأيضا التجسس على أحوال الناس.. قد أعطيه بعضها ولو كذبا!!

كنت أخرج وحيدا إلى أطراف البلدة.. ثلاثة شهور أو أربعة مرت وأنا أترصد طريقا ما توصلني إليه.. أخيرا توقف قربي جيب عسكري يحمل ثلاثة جنود.. تمحكوا بي فأظهرت رباطة الجأش.. قال العسكري الذي يجلس في المقعد الأول بجانب السائق:

- وين رايح يا فدائي؟!

- أنا لست فدائيا..

- إذن تعرف الطريق إلى الفدائيين؟!

- ربما!!

بحلق في جسدي من رأسي إلى أخمص قدمي.. ركز على عيني.

- اسمك؟

- حنانيا..

ضحك بصوت مرتفع.

- أنت واحد من الزعران أصحاب الأسماء المزورة، ولك هذه البلدة كلها ما فيها هذا الاسم!! اسمك!!

- حانا!

- حتى هذا الاسم يصعب تصديقه؛ لا ينتمي إلى هذه
البلدة اللعينة!!

- لأنني لا أنتمي إلى هنا!!

من هنا بدأت قصتي مع الموساد، طبعاً أنا لا أريد أن
أدخل في التفاصيل، لأنني كتبت قبل أسبوعين اعترافاً بخطي
الواضح، تحدثت فيه عن تفاصيل كثيرة حدثت معي، كتبت
ثلاثين صفحة فلوسكاب عن أعمالي. قالوا لي بعد هذا ماذا
تحكم على نفسك؟! قلت: الموت بكل تأكيد!! فغفوا عني..
يقولون عن أنفسهم لجنة أمن الانتفاضة أو غيرها!! المهم عفوا
عني!! أنا لا يهمني الآن إلا أنني أصبحت رجلاً شريفاً بعد
هذا العفو، أحمل براءة من سلطتهم، العالم كله ثار من
أجلنا، نحن الذين تعاملنا مع الموساد.. قالوا لهم: طبقوا
حقوق الإنسان فطبقوا متنها وحواشيها..

* * *

لا يؤسفني أنني خنت هذه البلدة التي أكلت من خبزها!!
كنت وما زلت غريباً.. أنا حانا العنكبوتي. هذا الاسم
يناسبني كثيراً!! أنا كل ما تتصورونه من المنكرات في رأيكم،
ومن البطولات في رأيي، ألم أكن أكثر وطنية منكم؟ في أحيان
كثيرة شهد لي الناس.. ألم أكن أكثركم سخاء في مساعدة
الملهوفين، وفي رعاية المكفوفين وأبناء الشهداء؟ ألم أكن
السباق إلى حل مشكلاتكم، صحيح أنكم كنتم تهتمونني
بالجاسوسية، لكن ما أن يعتقل الواحد من أبنائكم حتى تهرعوا

إلي مستنجدين مولولين، ما في غيرك يا حانا، إنت قدھا وقودو!! وكنت أعرف في داخلي أنكم تكذبون، تشمونني في ظهري، ومع ذلك بقيت أخدمكم بلا استثناء!!

ليلة صاخبة مع شلومو في أحد فنادق القدس مكافأة اللقاء الأول الذي جمعني مع "أبو نعيم"، وشلومو هذا لم يكن رجلا، هو تلك المرأة الجميلة التي راودنا بها "أبو نعيم" الكلب عن نفسها قبل أكثر من عام.. كنت بكرا وشلومو سيدة مجربة، تعرف كيف تمتص قطرات اللذة، أو هذا على الأقل ما شعرت به معها، إذ ما زالت حلاوة سم ذلك اللقاء تحاصرني، رغم أنه اللقاء الذي أظهر عنكبوتيي البغيضة على وجهها المتقيح..

لا شك أنني الآن، ليس احتراماً لذاتي أو لذواتكم، أعترف بأنني أبغض نفسي التي انزلت إلى مستنقع الرذيلة حدّ الاختناق، وهذا ما يشعرني أحيانا بضرورة الانتحار تسهيلاً لمهمة مرض الإيدز الذي ينهك قواي!! لكن لا أستطيع أن أنتحر.. من هنا كان حكمي على نفسي بالموت أمام لجنة التحقيق معي، ربما جاء هذا الحكم واحداً من طرق الانتحار التي كنت أبحث عنها في نفسي.. ومع ذلك لم يقتلونني، فقط اكتفوا بأن أعلنت أمامهم التوبة، و تعهدت بألا أعود إلى ماض نتن..

كانت الرحمة التي نزلت علي بسبب كثرة المتورطين على شاكليتي، كما أن حقوق الإنسان وقفت لجانبنا.. . يضاف إلى ذلك أن أخي مانا أصبح واحداً من ضباط السلطة، واحداً

من الكبار . . وإمبراطوريتي الاقتصادية هي الأخرى واحدة من دعائم اقتصادنا . . هكذا حصلت على شهادة البراءة، حينها اشتعل في قصري الغناء والرقص لثلاثة أيام متتالية تعبيرا عن الفرحة بالبراءة .

ذبحت في هذه المناسبة تسعين كبشا . . لم يبق واحد من البلدة إلا وهنأني، استثنى من ذلك أتباع التنظيمات، فهم ما زالوا يشكون ببراءتي، لا بد أن تتسرب إليهم بعض المعلومات عن ملفي، رغم تيقني بأن التحقيقات الأخيرة لم تكشف لهم شيئا، كما أن وساطة أخي مانا جعلت الناس يتقولون عن علاقتي المشبوهة بأنها كانت علاقات مبرمجة لصالح الثورة، لذلك لا تستغربوا الآن بعد عشر سنوات من محاكمتي أن أغدو عضوا في الوفد المفاوض، رغم الإيدز الذي ينهش مفاصلي!!

على أية حال، لم يكن بمقدوري أن أفعل أي شيء تجاه تساقطي الذي أخبرتكم عنه، بعد الليلة الحمراء بيني وبين شلومو، فكرت أن أبتعد عن هذه الطريق . قلت له: "أنا لا أعرف شيئا عن الفدائيين، أنا انتهيت شلومو، وانتهى الأمر كله، إلا إذا أردت أن أتابع العلاقة معها، وأكون صديقكم " . كشر، همر، احمر وجهه، ازرق . قال بصوت أجش حانقا ناقما: "هل تحسبها لعبة أولاد صغار يا حبيب أمك!!" . فاجأني تحديه، ربط لساني في ملجمه . انصعقت به يفتح زرفا وينثر منه عشرات الصور في أوضاع عري مختلفة بيني وبين شلومو . لم يحمر وجهي، لأنه اسود مباشرة . . لا أقول

لكم: إنه كاد أن يغمى علي!! لأنني ربما توقعت أن يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، لكن ليس بهذه الصور الفاضحة.. انتظرت أن أرى النتيجة.. أن يتكلم.. قال ضاحكا: أتريد أن ترى نسخاً من هذه الصور بين أيدي الناس صباح الغد!! كل هذا بسبب شلومو..!!

جاءت نهاية ذلك كله بعد خمسة وعشرين عاماً في دوامة الإيدز.. لا أظن أن الإيدز جاء من شلومو.. لم أرها منذ عشرة أعوام، أعتقد أنه جاءني من تلك الشقراء التي ادعت أنها من أصل كندي.. كانت جميلة.. تمحكت بي بجمالها.. الجهاز دفعني إليها، ربما أدركوا أنني لم أعد أعمل بتفان.. كأنهم قرروا أن يتخلصوا مني، وضعوني في نادي الإيدز بكل جدارة.. أنا حانا صاحب الإمبراطورية الاقتصادية تحولت إلى عضو هش في نادي الإيدز!!

* * *

كيف انتقلت من السقيفة إلى القصر؟! كيف كنت إمبراطوريتي؟! حدث هذا كله بعد أن عرض أبو نعيم الصور أمامي، قال لي هاشا باشا: لا تعتقد إطلاقاً أننا سنتخلى عنك، أنت واحد منا، وحتى تثق بما أقول، سأريك المفاجأة التي أحضرتها لك، على شرط أن تعدي بألا تتفوه بما قلته قبل قليل؛ أن لا تتعامل معنا!! هذه السخافة لا أريد أن أسمعها منك مرة أخرى إطلاقاً.. هل تعدي؟! هزئت رأسي موافقا.. تابع: قبل أن أريك المفاجأة، سأمزق هذه الصور حتى تتأكد من أن العلاقة بيننا علاقة ثقة، لا يمكن أن

تنزعزع!! بدأ يمزق الصور، ويلقي بها في سلة المهملات،
رأيت الجسدين العاريين يتحولان إلى أشلاء، فبزغ من بين
التمزق رأسي الصغير مستكيناً قابلاً للتشكيل ككومة عجينة
آسنة!!

مدّ سيجارة!! أشعلها!! هذه السيجارة البداية الأولى التي
جعلتني أقرر ألا أمتنع عن التدخين طوال حياتي، هي بداية
تزامم الأمراض على رئتي، وشرائبي، أصبحت من أصحاب
القلوب الميتة!! وأيضاً من المدمنين على الخمر الذي أجرته في
عروقي شلومو مع بقايا ريقها، فأشعرتني بموت الحواس . لم
تنته علاقتي بها، إلا في اللحظة التي جاءت تدعي أنها تحمل
جنيني!! هذه العاهرة تحمل مني وهي تنام مع مئة في اليوم
الواحد!! صفعتها!! غابت ولم تعد تظهر بادعاءاتها الكاذبة!!
وربما الصادقة!! سيعيش الطفل في "الكمبيوتر" إلى أن يقدر
على حمل البندقية لمحاربتنا، وقد أكون في النهاية واحداً من
ضحاياه إن عشت لمعاصرة زمنه!!

ضغط أبو نعيم الجرس، دخلت شلومو تتمايل بتنورتها
القصيرة جداً، جلست على الطاولة واضعة فخذيها القمحويين
في مواجهتي، فتح جرار الطاولة، كب الدولارات في حجرها،
امتلاً، هو حجر تنورة قصيرة.. قال هذه الأموال، وهذه
المرأة لك، عش حياتك، تعال إلي بعد شهر، لنبدأ مشاريع
عملنا، هيا اذهبا إلى شهر العسل، التقيا في النهار فقط، لا
في الليل!!

تركت المدرسة، ادعيت أنني أعمل في القدس، أقضي

الوقت مع شلومو في فندق بالقدس الغربية، وأعود يوميا إلى البلدة، رافضا إلحاح أمي بأن أعود إلى المدرسة.. أصبحت رجلا، أتجاوز أساليب الأطفال في الحركة واللعب، أنا حانا العنكبوتي الذي سيكون له شأن ما بعده شأن، سأجعل هذه البلدة الحقيبة لا تتحدث إلا عن حانا صاحب المشاريع الكثيرة، بودي أن أوفر الأموال التي أصرفها على شلومو في الفندق، لكن "أبو نعيم" الحقيق، قال لي: هذه أموال فرشة، لا تحاول كأخوالك اليهود أن تجمع قرشا فوق قرش على حساب رفاهية شلومو، كن كأعمامك العرب.. كن خليجيا يا حانا مع الحسنة شلومو!! لو أنهم لم يسمونها شلومو!! حاولت أن أعرف اسمها الحقيقي، رفضت، ادعت أن شلومو هو اسمها، ثم طلبت مني أن أسمىها الاسم الذي أراه مناسباً، فسميتها رشيل!!

ما الذي عناه الخبيث أبو نعيم بأخوالي اليهود، وأعمامي العرب، حاولت أن أعرف من رشيل، أية أخبار تخصني، ادعت أنها لا تعرف شيئا، حاولت أن أعرف من أمي، لم أستطع، حاولت بعد ذلك مع "أبو نعيم"، ادعى أنه قال كلامه مازحا، دون أن يعني شيئا.. لم أصدقه!! حاولت مرات كثيرة أن أتمس خيطا، دون جدوى!!

كبرت، وكبرت إمبراطوريتي التي تؤثر حتى في جهاز الموساد، وفي إحدى الليالي التي زارني فيها أبو نعيم متخفيا بلباس عربي من بئر السبع، شرب الخمر حتى أوشك على أن

يفقد عقله، لكنه تماسك، وقص علي قصة حياتي المخفية، الأسرار التي بحثت عنها، كانت في جعبته، ربما تعمد أن يقصها علي بعد أن فرضت شروطي عليهم، لم يعد بإمكانهم أن يجعلوني "شخصية" بين أيديهم بفضل إمبراطوريتي المالية!!

قال: سألتني مرات كثيرة عن أصلك وفصلك، عن أحوالك اليهود، وأعمامك العرب، ربما آن الأوان كي أقصها عليك، كنت أعرف أن أمك لن تقصها بتاتا، لأنها تدرك جيدا أن قصتها ستعقدك..

القصة أن جدتك (أم أمك) جاءت من اليمن مهاجرة مع مجموعة من اليهود، تركت زوجها المسلم هناك، حملت معها أمك التي كان عمرها عشرة أعوام، كانت أمك مسلمة، ولم تسلم جدتك، لا أعرف لماذا أصرت أمك على أن تبقى في الإسلام، ربما ندمت جدتك على مجيئها إلى إسرائيل، حنت كثيرا للعودة إلى اليمن . الكثير من المهاجرين حنوا إلى العودة، بما فيهم أنا!! نحن كما تعرف نعتبر الولد للفراش، أي للأم، أمك رغم أبيها المسلم فهي يهودية، لكنها كانت تصر على أن تبقى مسلمة، لذلك تزوجت رغما عنا مسلما من بئر السبع، هربت معه، قتلناه فيما بعد، ثم هربت إلى بلدة "بني نعيم"، أو بالأحرى إلى "بني جحيم" كما تسميها، بقيت تحت أنظارنا، وبقيت أنت أيضا تحت أنظارنا، لقد قررنا أن نتجك وسطهم!!

صمت فجأة!!

قلت بلا إرادة مني: من هو مانا؟! قال: لا أعرف!!
أيقنت أنه عاد إلى اللعبة نفسها، لعبة لا أعرف؟! من هو مانا!!
من هي أمي حقيقة!! ليس بإمكانني أن أصدق روايته، وإن
كانت إمكانية صحتها كبيرة، يجب أن أعرف التفاصيل، لكن
ما أهمية ذلك؟ هل أخوالي يهود كما يدعي؟! من يؤكد هذه
الفكرة الخبيثة؟! أو ينفي صحتها؟! أنا ابن امرأة بنت يمني
مسلم وأم يهودية يمنية، ثم أنا ابن مسلم فلسطيني من بئر
السبع، ما هذا الخليط الغريب؟ من هو مانا!!

* * *

بعد شهر العسل جاءت شهور البصل، قال لي أبو نعيم:
يجب أن تعرف الآن مهماتك يا بطل، إنك الآن واحد من
عناصر الموساد، ولك وظائف عديدة ستجني منها أموالا بقدر
ما تعمل، هناك مئات صاروا أصحاب إمبراطوريات مالية
بسبب تعاونهم معنا، نحن نعرف كيف نجعل سواعدنا تتحول
إلى غيلان تأكل الأخضر واليابس، فتصير الأرانب، كما يقول
إخوانا المصريون، تنتظنظ في أيديهم!!

كنت صامتا وهو يعدد المهمات، ويدونها بخط عربي
واضح على ورقة بيضاء، العفاريت والعناكب تنصب من القلم
على تلك الورقة العذراء التي تتشوه تشوها ما بعده تشوه،
والمثل المصري يطنطن في ذاكرتي: "دخول الحمام مش زي
الخروج منه"، دخلنا بشهوة الجنس، وها نحن نخرج
بالإيدز، والقلب، واللعنة، والحكم بالإعدام، والتنانة التي لن
يغسلها "تايد" العالم كله!!

مهماتك:

أولاً: عليك أن تنقل إلينا أية أخبار تهدد الدولة، وخاصة أخبار الفدائيين، ومن يساعدهم من أهل البلدة، حتى التفاصيل الصغيرة التي تعتقد أنها غير مهمة، هي بالنسبة لنا في غاية الأهمية، وسنرتب الطريقة الآمنة التي تكفل حمايتك من شبهة التعامل معنا!!

ثانياً: يجب أن تعمل على توليد بؤر النزاع والاختلاف بين أهل البلدة، تكثر الطوش بينهم، وهذه يمكن توليدها، بحرق كروم العنب، خلع شجر الزيتون، هدم الحيطان، الوشائات، إثارة الفتن.. ستجد عشرات الطرق الميسرة لتوليد الفتن، وخاصة عن طريق الأرض، والعرض تحديداً!!

ثالثاً: يجب تنفيذ، بعض المهام التي توكل إليك، من خلال ما يراه الجهاز الأمني مناسباً، كأن تطلق الرصاص ليلاً، لنحاصر البلدة ونفتش عن الفدائيين، أو أن تضع بودة العقم في خزان المياه، أو أن تخرب الكهرباء، لتثير الصراع بين الناس ومجلس بلديتهم!!

رابعاً: وهذه أهم ما نهدف إليه من تعميق خدماتك، وهي أن تجند بعض أبناء البلدة في جهاز الموساد، وهذا لن يكون بطريقة سهلة، يجب أن تعرف من تختار، وكيف تختار ومتى تختار، وأفضل السبل عن طريق الإسقاط؛ أي إغراءات الجنس والمال، لتكون الصور العارية خير وسيلة لإسقاطهم!!
بدا لي بعد ذلك أنه يتكلم، وأنا لا أستمع إليه، سرحت مع الصور العارية لكونها خير وسيلة للإسقاط، هذا ما حدث

معي بالضبط، علي أن أمارسه مع الآخرين، سأصطاد فرائس النساء أيضا، الأساليب نفسها، ماذا لو ثار أحدهم علي، وقتلني، أو ربما قتلني وانتحر، هذه كارثة.. ربما وصل أبو نعيم إلى المهمة العاشرة.. لم أصح إلا وهو يقول: أفهمت كل هذه المهمات.. هززت رأسي.. خرجت إلى شارع المدينة ضائعا.. تحسست جيبي.. كانت منتفخة بالأوراق النقدية..

* * *

ليس بإمكانني أن أروي الأعمال الإجرامية التي قمت بها خلال خمسة وعشرين عاما، أنا أقول الآن إنها إجرامية!! كنت أمارسها بلا عواطف، "مجبور أخوك لا بطل"، أنا مجبر على أن أمارس الرذيلة، قلت هذا الكلام لمانا: "مانا، أنا مجبر، لن تعرف معنى أن تكون مجبرا، هذا موساد، وليس لعبة.. لقد خدعوا طفولتي فغدوت خائنا، حتى هذه الكلمة تعد خفيفة" ..

هل أنوي أن أتوب!! اليهود لم يعودوا يريدونني، أنا الآن بالنسبة لهم ورقة صفراء ساقطة، ورقة بلا جدوى، مزيفة كمئة دولار أمريكي، مدعوكة بالأوساخ، إيدز، وقلب مترهل، ودماغ آسنه.. ورقة مفضوحة!! ورقة أكبر من مفضوحة.. ربما الأجدى أن يقال ورقة عاهرة!!

هل أدون مذكراتي هذه؟ هل أنشر لكم الثلاثين صفحة المختصرة التي كتبتها كاعتراف للجنة التحقيق التي عينتها الانتفاضة للتحقيق معي؟ تصورت ابن عامر سيد الجلسة، أو

بالأحرى، هو القاضي الأول في المحكمة، نظر إلي، كأنه يذكرني بالقصيدة التي تحدث عنها كثيرا، تلك القصيدة التي كتبها يوم الأرض في السجن، وقرأها بين ثلاثين سجينا، وفي الصباح اعترف أربعة من السجناء الثلاثين بأنهم عملاء، لم يستطيعوا أن يصبروا على خيانتهم، حركت القصيدة ضمائرهم الراكدة، شعروا أن حياتهم الحقيقية أن يعترفوا، وأن يعودوا إلى صف الوطن، حتى السجن مليء بالعملاء.. يعيشون في غرف خاصة تسمى غرف العصفير، يستلون الاعترافات، يتجسسون على السجناء.. وقد أوكلت إليّ مهمات كثيرة في هذه الغرف، كنت أمثل دور الفدائي، فأستل الاعترافات وأسلمها لضباط التحقيق.. كأنه يذكرني بأن أعترف، لأنقذ نفسي من موت الضمير، يريد المعلومات التي تخص الآخرين، ما يقارب أربعين اسما ساقطاً سلمتها في التحقيق معي، وهناك مثلها ممن تكهنت أنهم تعاملوا مع الموساد..

قالوا لي: لن نقتلك، ألم تعرف بأن لدينا ثلاثمئة ساقط محكوم عليهم في محكمة الانتفاضة بالموت، ولم نعدمهم، لأننا لا نريدها فتنة، فقط اعترف، وتوقف عن العمالة.. وفي نهاية التحقيق قالوا احكم على نفسك حكمت على نفسي بالإعدام، فوضعوا ملاحظة تقول: يحكم عليه كما حكم على نفسه بالإعدام، ويؤجل هذا الحكم حتى إشعار آخر، لحين قيام الدولة على كامل ترابها الوطني، مع الأخذ بعين الاعتبار تنفيذ هذا الحكم بطريقة غير لافتة للانتباه فيما لو قرر العميل العودة إلى مستنقع الرذيلة!!

وقعت أسفل الثلاثين صفحة. سلموني ورقة موقعة من الأمن العام تنص على براءتي مما نسب إليّ من تهمة. قالوا لي: هذه تساعدك على التعايش بين الناس منعاً للفتنة، وحاذر أن تتلاعب بذيلك، فقط اعرضها على بعض الوجوه في البلدة، ليكونوا شهداء على أنك لم تعد عميلاً!! حاولت أن أسلم على ابن عامر، زميل طفولتي البائسة بحرارة، لكنه أعرض عني، كأنني كلب أجرب يتحاشاه كل من يمر به، ولعلني أكون حماراً أجرب أكثر قرباً إلى نفسيته من الكلب الأجر!!

* * *

المهمة الأولى التي نفذتها كانت فوق تصوراتي، لم أتوقع أن يعطيني المجرم أبو نعيم زجاجة فيها نصف كغم من مادة سائلة غريبة، قال لي: أريدك أن تتسلل منتصف ليلة تراها مناسبة إلى مدرسة البنات، لتصب هذه الزجاجة في خزان الماء، حاذر أن تترك الزجاجة، كسرهما في البيت إلى قطع صغيرة. قلت له ما هذه؟ رد بانزعاج: ألم أقل لك لا تسأل عن الأشياء التي لن تفهمها، لو أردت أن أقول ما فيها لقلت!! فقط أريدك أن تنفذ، وإن أردت أن أخبرك مستقبلاً، فسوف أخبرك دون أن تطلب مني. إياك، ثم إياك أن تلقيها في الزباله، لأنني سأعرف إن فعلت ذلك، ثم اطمئن فهذه الزجاجة لن تميّت أحداً، فقط دوخة بسيطة بين بعض البنات لإثارة الفتنة لا أكثر ولا أقل، وحتى تطمئن أكثر على ما فيها، فها أنا أشرب منها.

تناول زجاجة مشابهة موجودة على الطاولة، سكب منها قدر ملعقة في كوب، أضاف الماء، شربها.. لا أعتقد أنه كان صادقا في تجربته، ما وضعه هو بعض الخمر، أما هذه الزجاجة، فهي كارثة، لكن ماذا أفعل تجاه نشر صوري عارية بين الناس فيما لو قررت ألا أفعل، كارثة ستحل على أمي، كارثة ما بعدها كارثة ستحل علي!!

كان المبلغ الذي أعطاه لي ثمن وضع الزجاجة في الخزان مبلغا كبيرا، بكل تأكيد ستكون الضحايا أكبر من المبلغ..

تسللت بعد الثانية عشرة ليلا، مرتعبا من أن يراني أحد، إلى مدرسة البنات المحاطة بأشجار السرو؛ الكفيلة بأن تحجبني عن عيون الناس.. لم استغرب أن يترافض الناس إلى مدرسة البنات ضحى، حملوا أكثر من خمسين بنتا في حالات إغماء خفيفة إلى العيادة، لم تحدث وفاة، هذا ما خفف من عذاب ضميري، حتى وإن سمعت بأن معظم الفتيات أصبن بالعقم، إذ أعلن الأطباء أن الماء احتوى على مادة تقتل البويضات المنتجة للأجنة، الملاعين حتى هذه يحاربونها، الأجنة يا أولاد الكلب، يا قردة ويا خنازير، وأنا غدوت مثلكم، الضمير إلى الهاوية..

لم تكن اللغة التي تصورتها تحاصرني في عيون الناس تخصني، لقد أعلنوا أن الموساد، وراء هذه العملية القذرة، وأن وراءها أيضا أياد خفية من أهل البلدة، بكل تأكيد شكوا فيّ وفي غيري، لكن لا دليل لديهم، وأنا من جهتي حرصت على أن أشتم الموساد أكثر من أي شخص آخر في البلدة،

هذا هو درع الحماية، لكن الداخل معطوب بالخيانة . إن كانت هذه البداية، فما النهاية التي يتصورها أبو نعيم في خدمة جهازه القذر، جهاز أخوالي كما كان يقنعني فيما بعد . . ربما لم يعد يهمني غير الفلوس!!

قال لي أبو نعيم بعد ما جرى في العملية الأولى: يجب أن تستغل الفرصة، عليك أن تشكل خلية ثورية، أربعة أشخاص وأنت خامسهم، حاول أن تقنعهم بأنكم ستقومون بعملية ضد الجنود . سأعيدك في هذه المهمة إلى أحد أفراد التنظيمات في البلدة المجاورة، طبعاً هو ابن تنظيم، لكنه في الخفاء يعمل معنا . .

سنة كاملة ونحن نعمل في هذا الاتجاه، غدوت أقود خلية فيها أربعة أفراد من أربعة عشائر، حصلت على قطعة السلاح من الشخص الذي أوصلوني به . . لما جاء دور تنفيذ العملية، أقنعت أفراد الخلية أنه علينا التخلص من أحد العملاء في البلدة، تبين لي في نفسي أن الموساد يريدون التخلص منه . أخذناه إلى ساحة مدرسة الذكور مساء، قتلناه، وألقيناه في البئر .

جاء جنود الاحتلال في اليوم التالي، عملوا التحقيقات الواسعة، لموا الرجال في ساحة المدرسة، وأنا من ضمنهم، ادعوا أن القاتل مجهول!

بعد يومين اعتقلونا الخمسة، وزجوا بنا في السجن . . قامت إثر الاعتقال الحرب بين العشائر، إذ كنا الخمسة من

خمس عشائر قوية، قتلنا السادس من عشيرة أضعف، تشكلت التحالفات الجديدة.. ناس قالوا عن القتل إنه عميل ويستاهل، آخرون قالوا هذه لعبة موساد لتخريب البلدة..

حكم علينا بالمؤبد، أي حكم الواحد فينا عشرين عاما، ثم أفرج عنا بعد سنة ونصف، في عملية تبادل أسرى، فغدوت أحد الأسرى المحررين..

شك أناس كثيرون في تصرفاتي وتبعيتي للموساد، لكن لا دليل لديهم..

أعمال كثيرة أخرى قمت بها، كإطلاق الرصاص ليلا، لإتاحة الفرصة لمحاصرة البلدة بحثا عن الفدائيين الذي أطلقوا الرصاص..

لعبت دورا رئيسا في إثارة الصراع بين التنظيمات، فبعد أن كنت محسوبا على فتح، وأحد الأسرى المحررين، ثم أوشك أمري أن ينكشف، أعلنت تمردى عليهم، وانتميت إلى حماس، أطلقت لحيتي، صرت واحدا منهم، بل اعتبروني في البداية أحد أفراد الجماعة الفاعلين في التخطيط لمكافحة فتح، وبذلك جعلت أبناء العم ينقلبون بعضهم على بعض.. وفي إحدى ليالي الصراع، وما أكثرها! قتلت بمسدسي العجوز أبا القاسم، فقامت قائمة البلدة.. ناس قالوا: حماس قتلوه.. وناس قالوا: الفتاوية قتلوه.. وناس قالوا: هذه مؤامرة موساد للإيقاع بين أهل البلدة، انتبهوا يا ناس!! ولم تنتبه البلدة إلا بعد فوات الأوان، ثم تدخلت لجنة المصالحة العشائرية في الانتفاضة فأصلحت الحال. غضب مني أبو نعيم!! وقبل أن

يغضب غضبت حماس؛ إذ كشف أمري، أو هكذا تصورت، فأعلنت ولائي للشيوخيين متمردا على كل القيم الإسلامية!! كنت أيضا السبب في إثارة الصراع بين البلدة والبدو، حرشت البدو على سرقة أراضي البلدة، ثم حرضت البلدة على حمل السلاح لمحاربة البدو، قامت الحرب، فسال الدم، وكثر المعتقلون، فسر أبو نعيم..

الدور الذي اشتغلت عليه في الفترة الأخيرة كان إسقاط ما يقارب أربعين شخصا، منهم خمس فتيات، كان الإسقاط عن طريق الجنس والصور العارية، ما فعلوه معي بالعلاقة مع شلومو الجميلة، فعلته عن طريق شلومو وغيرها؛ لإسقاط العناصر الساذجة..

* * *

الطامة الكبرى التي كشفتني جاءت بعد انتحار خالد جابري الذي لم يتجاوز السابعة عشرة، أسقطته منذ عامين، ثم أصريت عليه أن يسقط ابنة أخته، أن يصورها عارية مع ابن أخيه فيضرب عصفورين بحجر واحد، أن يخدرهما بطريقته، يعريهما، ثم يصورهما في حالة عري ملتصقين، كأنهما يمارسان الجنس، لنضغط عليهما ونضمهما إلينا، وهددته بكشف صورته العارية إن لم يفعل..

لم يفعل . فوجئت بالناس تهجم على بيتي، فيأخذونني إلى مغارة منزوية.. لقد انتحر خالد بعد أن كتب رسالة طويلة عريضة يذكر فيها كل ما فعلته معه، أو طلبته منه، شرب " زجاجة الفندول " ومات.. لم أعترف، أعلنوا في الجرائد

براءتهم مني، جعلوني حمارا أجرب، طالت الاتهامات أسماء كثيرة، ذكرها خالد في رسالته . قال بعض الناس العقلاء: ربما تكون هذه الرسالة من وضع الموساد الذين قتلوا الولد! وضعوا في رسالته أسماء شريفة ليفضحوها ويوقعونا في الفتن والشكوك.. هذه الفكرة العاقلة مهدت الطريق لنجاتي، مدة ثلاثة أعوام، لكن أغلب الناس لم يعودوا يتعاملون معي، قرروا أنني أكبر ساقط في البلدة، وأني حانا الساقط الذي أسقط الخونة بلا شرف!!

اعترفت بجرائمي للجنة الانتفاضة، كان الثمن الذي قبضته شهادة براءة، وتحذير من العودة، وحثي على العمل من أجل خدمة الوطن . أصبحت في عهد السلطة أحد المفاوضين في اتفاقيات أوسلو بوصفي الخبير السابق في الشؤون الإسرائيلية!! والنتيجة إيدز.. مرض قلب.. إمبراطورية الأموال الحرام.. هل بإمكانني إن أصير إنسانا نظيفا مثلكم؟! أضع نفسي أمامكم الآن بعد هذا الاعتراف الذي هو غيض من فيض لتقرروا الحكم، فإن كنت خائنا لعينا، فتذكروا أنني محدود الإجرام قياسا إلى بعض زعمائكم!!

(4)

مانا

لم تكن شوارع البلدة في هذا الشتاء أحسن حالا من أي شتاء سابق.. الطين.. حفر الماء.. بقايا الثلوج في الأماكن المرتفعة.. الصقيع الذي يجعل عروق الأيدي والآذان تتجمد.. أعمدة الدخان تتصاعد من بعض البيوت المجاورة عن بعد.. الفراش ساعة المغيب يشعرني بأفضل عمل أقوم به الخلود إلى النوم قرب موقد النار.. أحتمي الشاي الساخن بالميرمية، تصر أمي على أن يكون الشاي بالميرمية شتاء، وبالنعناع صيفا، وبالزعر ربيعا!!

وجودنا في هذا الكرم على طرف البلدة يشعرنا بأننا لم ننتم إلى أهل البلدة، كأنهم فيها جزء من مدينة ريفية، ونحن هنا ريفها.. ترعرعت تحت الدالية.. لم يكن من حقنا أن نكون أصحاب كرم أو أرض!! الأرض ليست لنا.. أمي تعمل في المزرعة نهارا، وكنا أنا وحانا نساعدنا خاصة في الحراسة ليلا، لذلك حسن صاحب الكرم من أجرها لمل كبرنا، وقال لها: كلي أنت والأولاد من العنب ما شئتم!!

لم يشعر حانا في أي يوم من الأيام بانتماء إلى المكان، يغسل صاحب الكرم بالشتائم والقاذورات، ويلعن وجهه اليبس تحديداً.. لم تجمع مشاعر أخوة حقيقية بيني وبينه، ربما أشعر كثيراً بأن الصدفة وحدها هي التي جمعت بيننا الثلاثة.. دون الأب.. أين أبونا؟ السؤال الذي لم أجروء على أن أطرحه على أمي قبل السادسة عشرة من عمري.. عندما ذهبت لأحصل على هوية سلطات الاحتلال فكرت به.. اسمه مجرد رقم في حياتي لا ينتمي إلى عالم المشاعر من قريب أو من بعيد: مانا خلف إبراهيم الموسى.. من هو خلف إبراهيم الموسى هذا، لم أشعر أنه أبي بتاتا، لأنه مات كما علمت!! كنت حريصا على أن أخفيه في زوايا النسيان.. وأتعلق بالدالية بدلا عنه.. أحيانا كثيرة ينتابني شعور بأنني ولدت من إحدى هذه الدوالي الأسطورية.. لماذا سموني مانا.. لا أعرف.. كان الأجدر بهم أن يطلقوا عليّ اسم كرم أو دالي أو وعر أو أي اسم آخر ينتمي إلى هذه الطبيعة الجميلة رغم أنني لا أمتلك منها شيئا!!

ربما أحسست بانتماء حقيقي إلى هذه الطبيعة الأم بعد الخبر الذي لم أعد أعرف كيف وصلني؛ وهو أن أمي ليست أمي الحقيقية.. قالت الحكاية: في ظلمة أحد الأيام سمعت أمي حركة قرب العتبة، قامت تتبينها، فوجدتني طفلا لم أتجاوز الأسبوع مرميا عند باب السقيفة، في مثل هذه الحالة يطلق الناس عليّ ابن حرام أو ابن زنى، واسمي "البندوق"..

لكن أُمي نفت هذه الحكاية عندما تجرأت وسألتها عمن أكون.. قالت إنني ابن لحمها ودمها.. قلت: من هو خلف إبراهيم موسى.. هذا الاسم الذي يخصني، ولا يخص حانا الذي اسمه حانا يوسف مرزوق التباكي..

قالت: إن خلف إبراهيم موسى تزوجها بعد يوسف، ثم توجه إلى الحرب، يقال إنه بحث عنها كثيرا بعد غيابها تحمل حانا على يديها، وقيل إنها التقت به في إحدى الليالي فأنجبتني، ثم غاب.. لا تعرف أُمي إن كان ميتا أو ما زال حيا. تشعر أنه مات منذ زمن طويل!! لأنه لو كان حيا، لبحث عنها ولجاءها إلى هذا المكان الذي انتقلت إليه من بلدة مجاورة قريبة من هنا!!

على أية حال لم يعد يهمني من أكون، الرجل منا ينتمي إلى نفسه أكثر من انتمائه إلى قبيلة تؤويه، فإن كنت غريبا، أو ابنا غير شرعي فأنا لا ذنب لي، أهل البلدة كلهم يعتقدون أنني محترم، مؤدب، على عكس حانا الأزعر السرسري كما يقولون.. هذا ما جعل حانا لا يحبني، وهذا أيضا ليس ذنبي، فأنا كنت وما زلت أعتبر نفسي شجرة ولدت بين ثنايا الطبيعة التي أراها الجمال الحقيقي في الحياة.

بحثت عن أعشاش الطيور، جلست على الصخور، أكلت الأعشاب بأنواعها، ما ألد أعشاب الطبيعة الياقة أوائل الربيع!! أنا مانا الذي يشعر بانتمائه إلى المكان حتى الثمالة.. لكن هل أنتمي حقيقة إلى هذا المكان، هل صار جزءا

مني؟ لا أظن أنه يريدني يوما ما.. لا أرض أملك، ولا ثمر أجنبي.. فقط سقيفة داخل كرم تعمل به أمي، وأنا مع حانا نعمل معها لنعيش على الفتات.. بل تصلنا أحيانا صدقات البلدة التي بدت مؤخرا تشعرنا بالعار..

من نحن في هذا العالم الغريب؟ سؤال بدأ يراودني عندما بدأت أنضج.. بدأت العلاقة بيني وبين المكان تتصدع.. ليس من حقي كابن سقيفة أن أحب ابنة صاحب الكرم التي هي في مثل عمري.. لعبنا معا في صغرنا.. غدت في مخيلتي جزءا من الأسطورة التي لا يمكن الاقتراب منها.. كرهتها، كرهت السقيفة، الكرم، الطبيعة، كرهت كثيرا صاحب الكرم الذي يشعرني بأنه يستغلنا ويحتقرنا!! سأبحث عن نفسي في نفسي!!

صرت أعيش تخيلات التحول بطريقة لا تشعرني بالارتياح.. أنا البطل الصنديد، العاشق الأسطوري، الأمير الكادح، وجدت كنزا، عثرت على مصباح علاء الدين.. لم أعد مانا البسيط الساذج الرومانسي الذي يحب الناس، ويرى أمه الطبيعة جميلة!! أنا قرد مسخوط ما دمت قابلا بهذا الوضع المهيئ!! أين طريق التحول؟ أين المعجزات التي تجعل العظماء فوق البشر!!

كانت البداية عندما تأخرت في الوادي المجاور إلى أن جنّ المساء، صغيرا وحيدا بلا دروب أبحث عن مستقبلي المختلف في أحلام ليس لها أول من آخر، لا أذكر أن بين

أحلامي فكرة أن أصبح فدائيا، أو حتى أن أساعد الفدائيين..
 في ذلك المساء لا أعرف من أين ظهر الرجلان اللذان وقفا
 أمامي فجأة، الأرض انشقت فنفتختهما جنا في ملابس البشر..
 شعرت بقشعريرة شديدة تهزني.. كأن شعر رأسي توقف..
 خفت.. لم تجرؤ قدماي على الركض هربا، تعودت أن أقفز
 كعزال بري عندما أشعر بالخطر.. لكن هذه المرة انغrust
 قدماي في الأرض.. نظرت إليهما كأرنب صغير أحاطت به
 كومة ذئاب.. قال الرجل الذي يبدو الأكبر سنا:

- ابن مين أنت!!

- ابن البلدة!!

- عارف إنك ابن البلدة، مين أبوك!!

- أمي الساكنة في السقيفة عند كرم الخلايلة!!

- آه، أنت ابن الغريبة!! يله روح إلى بيتكم، ما تتأخر مرة
 ثانية هون!! هذا الوادي فيه ضبع يلتهم الصغار مثلك دفعة
 واحدة، نحن هنا نترصده، أتريد أن نجعلك طعما له!!

شعور غريب انتابني، الرجل الذي تحدث معي أشعرنني أنه
 يمكن أن يكون والدي؟! والضبع الذي يصفه هو "ضبع وادي
 الجوز" الذي قتله الناس قبل عامين، كيف يظهر مرة أخرى،
 هل هو بسبع أرواح؟ شعرت أنهما فدائيان، لم أجرؤ على
 النظر خلفي إلا بعد أن وصلت إلى أعلى الجبل.. انزحت
 وراء صخرة، نظرت خلفي حيث كانا، بقايا النور لم تتح لي
 مجالا لرؤيتهما.. تأكدت أنهما لم يعودا في المكان، كأن
 الأرض انشقت وبلعتهما، ربما أيقنت أنهما فدائيان، تخيلت

أن أصبح فداثيا، لماذا لا أصير فداثيا، هذه الأرض التي أحببتها لا بد أن تحتضني عندما أصير فداثيا، سأقاتل اليهود الذين كما عرفت فيما بعد كانوا جزءا من عذاب أمي الشديد، وهم وراء قتل أبي؟ هذه الحقيقة التي تراودني الآن وغدا!! أن أصير بطلا يعني أن أموت في أية لحظة على أيديهم، أنا لا أريد أن أموت بهذه السهولة!! أنا مانا الذي يحب الحياة بين موجودات الطبيعة دون أن يحب هذه السقيفة أو الموت، لماذا لا يكون لي قصر؟! ربما ستحبني "دنيا" ابنة صاحب الكرم عندما تعرف أنني أصبحت فداثيا.. أنا من هذه اللحظة فداثي.. سأبحث عن الفداثيين للذين رأيتهما، سأقول لهما أنا فداثي معكما.. سأسمي نفسي "كرم"، أليس للفداثيين أسماء مستعارة؟! منذ هذه اللحظة أنا كرم، يا كرم: أنا كرم، أنا كرم الفداثي.. لن أخبر حانا بمشروعي هذا، سيضحك إن عرف، سيقول لي: "هل تريد أن تموت لتقتنع "دنيا" بك؟! حينها سيكون الدود التهم وجهك".. هذا ما أتوقعه منه دوما.. لم يحب الطبيعة.. لم يحب البلدة.. كان دائما يفضل البحث عن العظام في المغر، نخرج لنبحث عن الطيور وأعشاشها، فيبحث عن العظام ليتكهن بأصحابها!! كأنه لا ينتمي إلى هذه الأرض!! ابن عامر يتفق معي في أشياء كثيرة، إنه لا يحب حانا، هذا ما قاله لي مرارا.. قال: "ليت حانا مثلك.. كأنه ليس أخاك".. أنا نفسي أشك بأخوته!! لا أعتقد أن السقيفة قربت بيننا.. التباعد بيننا يزداد كلما كبرنا.. لكنه يبقى أخي الأكبر!! تصر أمي على تعميق عرى الأخوة بيننا، دون جدوى من جهته!!

أنا كرم الفدائي، يجب ألا يعرف حانا، ربما أخبر ابن عامر، سأقول له صرت فدائيا، سيسألني كيف؟ هذه أسرار، لا يجوز البوح بها!! ربما لن يصدقني.. أكيد لن يصدقني.. لن أخبره.. أنا كرم الفدائي سأنتمي إلى الرجال.. سأبحث معهم عن الضبع.. لن أقول لهم سأصير معكم فدائيا.. قد يشكون بأمري.. ومن قال إنهم فدائيون.. سأقول لهم ضموني إليكم في البحث عن الضبع.. وبعدها سأصير فدائيا من غير أن يشعروا.. هم مئة بالمئة فدائيون.. نمت مغمورا براحة شديدة بعد أن أقنعت نفسي بأنني فدائي.. يا كرم الفدائي، أنا فدائي!!

صباح يوم جمعة، رحت إلى ذلك الوادي الذي أشعرتني بغرائبية لذيذة لأول مرة في حياتي، هل بإمكانني أن أعثر عليهما.. المكان ساكن، يخلو من أية حركة باستثناء تناثر بعض الطيور الصغيرة.. لا يذهب الناس في العادة إلى مزارعهم أيام الجمع إلا بعد صلاة الظهر.. شاهدت رجلا يمشي وراء حماره في الأماكن الوعرة، كان الحمار محملا بحمل خفيف.. لا شك أن الحمار وصاحبه متوجهان إلى مكان يقطن فيه بعض الفدائيين.. شعرت أن الرجل "يتلفت" حوله كثيرا، لعله يراقب إن كان هناك من يراقبه.. حاولت أن أتوارى عن نظره.. توقف فجأة، أنزل حمولته قرب صخرة، ركب الحمار، ومشى.. أثارني الفضول.. توجهت نحو الحمل الذي تركه. أسير بتخف واضح.. أنظر إلى مكان

الحمل إن كان هناك من سيخرج ليحملة، ربما هو للفدائيين . .
كاد قلبي أن يسقط بين قدمي عندما أمسكت يد صلبة بعنقي من
الخلف . . ثم أفلتتني لأقابل وجهها قاسيا يتقادح الشرر من
عينيه :

- ألم أقل لك لا تأت إلى هنا!!
- أريد أن أشارككم البحث عن الضيع.
- هل صدقت أننا نبحث عن ضباع!!
- لم أصدق؟!
- لماذا أتيت؟!
- لأصير فدائيا مثلكم!!
- من قال لك إننا فدائيون!!
- أنا عرفت وبس!!
- ومدرستك؟!
- لا أريدها!!
- مين بعثك؟!
- أنا بعثت نفسي، واسمي كرم!!
- إذا حملت الكيس من هناك، إلى فوق الجبل، سنجعلك
واحدا منا يا كرم!!
- أعجبني أنه ناداني باسمي الجديد . . الكيس ثقيل، لكن
إصراري على أن أصير فدائيا جعل ثقله أخف مما تصورت . .
صرت الفدائي "كرم"، والمهمة المحافظة على أفراد التنظيم
من هجوم مباغت تشنه قوات الجيش المجيشة أو المستعربة!!
سنوات مرت وأنا صبي فدائي أخدم الفدائيين بطريقة لا

تدمجني بهم.. وعندما أنهيت الثانوية، قال لي "أبو محمد":
الآن بإمكانك أن تدخل جامعة الفدائيين، لتصير فدائيا حقيقيا،
والبداية تعلم إطلاق النار بدون إطلاق الذخيرة.. هكذا
تحولت إلى فدائي حقيقي، فغدا اسم "كرم" يستحق
الإعجاب..

في ليلة ظلماء حاصر الجنود سقيفتنا، اعتقلوني، قال لي
المحقق: "اعتقلنا جماعتك كلهم".. أنكرت أن تكون لي
صلة بالفدائيين، ثم اعترفت عندما واجهوني بالحقائق.. كان
علي أن أشك حينها بحانا، لكنني لم أضعه في الحساب..
تفاجأت من اعترافه بعد سنوات طويلة بأنه وراء تسليم خلية
وادي الجوز بعد أن كشفها بمراقباته لروحاتي وجياتي.. إذن
عشر سنوات قضيتها في السجن أنتظر لحظة الخروج بسبب
حانا..

* * *

لما خرجت من السجن أدركت أن الناس يبحثون عن
مصالحتهم، صرت نادما على الزمن الذي فرطت به دون
جدوى.. حاولت أن أنشق عن فتح مع المنشقين، لكنني
قررت أن أبقى تحت ظل القيادة، لأنال حظي من المصالح..
بعد عشر سنوات من السجن علي أن أبحث عن
مصالحي.. الرشوة صارت الطريق إلى بناء حياتي الجديدة،
خاصة بعد أن استلمت منصبا أمنيا مهما في الاستخبارات
الثورية العامة.. حتى أخي حانا لم يسلم من تحقيقي معه
بطريقة غير مباشرة.. اعترف للجنة التي عينتها للتحقيق معه..

عرفت كل شيء.. لم أنفاجأ، لكنني استغربت أن يكون بمثل هذا السوء.. شهادة براءة لا بأس.. الأجدد إحالة بعض أعماله لأجل الثورة.. ثروته كبيرة.. رشوته لي أكبر.. الفيلا الفخمة التي سكنتها أول حياتي المترفة، هدية منه.. قال مازحا: هذه الفيلا تعويض عن أيام السقيفة.. لا تنس أننا أخوة، وليس بين الأخوة حساب.. هذه لك حلالا زلالا.. لكن جماعتك ثقلوها علي.. الكل فاتح فمه على شرعه..

طمأنته.. لن يحصل لك مكروه.. كل ما عملته كان بمعرفة الثورة، ومن أجل التغلغل داخل الصف اليهودي الاستخباراتي.. وحتى تطمئن على أنهم لن يفعلوا لك شيئا، فأنت منذ هذه اللحظة أحد أعضائنا في اللجنة الفرعية الخاصة بالتنسيق الأمني بيننا وبينهم، أنت خبير في شئونهم، أنت إذن واحد من سواعد معركة السلام ما بعد أوصلو..

بعد تحسن العلاقة بيني وبين حانا، توترت العلاقة بيني وبين ابن عامر، لقد عد نفسه على طاولة المعارضة، عرض بنا، اتخذ أفعال حانا مطية للتنديد بي، وصلني كلام كثير قاله عن الرشاوي التي أتقاضاها من العملاء الأثرياء لأعطيتهم صكوك الغفران وشهادات البراءة وحسن السير والسلوك.. الناس يسمعون له.. لكنهم يتمسحون بي؛ لأن السلطة بيدي.. أليس بإمكانني أن أمسك أشرف أشرفهم وأحقق معه بحجة العمالة.. ثم أشيع بين الناس أنه تعامل مع الاحتلال.. وياما تحت السواهي دواهي..

ما زال الناس يتحدثون عن الشيخ جاسم الذي كان وجها

عشائريا وطنيا في الانتفاضة، وبعد أوصلو لم يترك واحدا من السلطة إلا وشمته.. ردد كثيرا متعمدا: "بين حانا ومانا ضاعت لحانا.. يعني أنا وأخي ضيعناه.. الانتهازية والخيانة ضيعت لحانا" .. صبرت عليه حتى طاف صبري.. بعثت إليه سيارة مدنية فيها ثلاثة أشخاص، حملوه معهم لحل قضية عشائرية.. ضربوه حتى أوشك على الموت.. أعادوه ورموه عند باب بيته.. عبرة لمن لا يعتبر!! أطلقنا الألسنة تلوك سمعته، تتهمه بالعمالة.. من يراه الآن صامتا مستكينا، يقول: الله يرحم أيام الشيخ جاسم، ماكان واحد يسلم من لسانه.. حتى هو نفسه لم يسلم!!

لا شك أنني لم أعد أعرف من أكون.. هل حرمان الصغر فجر شهوتي للاستغلال والانتهازية.. معك قرش تساوي قرشا.. هذه العبارة الوحيدة التي أؤمن بها حتى لم أعد أشعر بوجودي بعيدا عن القرش.. كلهم حولي يؤمنون بهذا الشعار بما فيهم أعتى العتاة في الوطنية.. المسكين من يركب سلم الشرف!! هذا السلم ليس لمانا.. مانا له سلم الثراء.. كل واحد فيهم يحسب حسابه.. يقولون: الله يرحم أيام الخدمة في السقيفة.. لا بأس.. فأنا كنت حافي وطلعتني ذراعي.. بذراعي صرت شعبان.. معك قرش بتؤمر ميت كلب كي يحرسوك.. ما معك قرش الكل بيركبك..

* * *

لا أقول لكم هذا الكلام بحثا عن عنجهية أو توبة، أو نتيجة للشعور بعقد الذنب التي تحاصرني بسبب أموال الحرام

التي تلاحقني، كما أنني لست مذنباً إلى الدرجة التي أعلن فيها تحولي من تنظيمي إلى تنظيم يساري، أو تنظيم إسلامي.. الأمور تختلط علي.. صدقوني لم أعد أثق بأية حلول يمكن أن تنتجها السلطة.. نحن بكل تأكيد أصحاب مصالح.. مصلحتنا أن نبقى على قمة الهرم.. وإلا فإن الناس سيأكلوننا لحماً ويرموننا عظاماً مشوهة.. الناس اليوم غير الناس زمان.. القنوات الفضائية اللعينة لم تترك لنا ركناً ناوي إليه دون أن ننكشف.. مرات كثيرة خرجت إلى الهواء لأدافع عن أهدافنا التي لم أعد مقتنعا بها.. الكبرة تلاحقنا حتى على الخازوق.. حالة من التنبلة تحاصرنا، إلى أن أصبحنا أجواقا في أيدي من هم أكبر منا..

كم أتمنى لو أعود طفلاً أحارب الدبور بالصباح، وما أن تقرصني دبورة حتى أبول على تراب الأرض، فأضع من الطين على مكان القرصة، يتلاشى الألم والانتفاخ فوراً.. هذه طفولة حقيقية.. الآن كل الأشياء المرعبة التي شوهتنا تغور كجروح منتنة في أعماقنا.. تاريخي النضالي غدا كوابيس تلاحقني ليل نهار.. ليس بإمكانني أن أكتب اعترافاتي.. لو كتبتها وقرأها الناس.. لم يعد هناك من يثق بمسؤول على وجه الأرض.. لا يوجد في المخيلة ممنوع لم أمارسه.. هذه هي الحرب الداخلية نأكل فيها لحوم بعضنا، على أسماك القرش أن تأكل الأسماك الصغيرة لتبقى على قمة الهرم.. التحول إلى إنسانية ثورية أكذوبة، لا يؤمن بها إلا الأغبياء الذين ستدوسهم الأقدام العسكرية، كما تدوس أعقاب السجائر.. إذا لم تكن

ذئبا أكلتك الذئاب.. فهل تطلبون مني أن أصير دجاجة بين
الوحوش.. سينتفون ريشي، فأغدو عاريا تتكالب عليّ
سكاكينكم.. فالجمل إذا وقع كما تقولون تكثر سكاكينه..
وأنا ابن هذه الثورة لن أقع مهما كلف الأمر من البطش
بالرؤوس التي تحاربني.. أتريدون قصة محاربتني لأعدائي
داخل صفوف الثورة.. بإمكانكم أن تقولوا إنني لم أحارب
إسرائيل بتاتا.. لأنني في الحقيقة حاربت من أجل الوصول
إلى أعلى كرسي في الأمن.. الأمن الذي يحمي وجودنا من
تياراته المتصارعة!!

صدقوني لم أترك امرأة متاحة من تحرشي بها.. لن
أخبركم عن تلك اللحظة التي انسحبت فيها من اللجنة المركزية
بسبب أنهم قرروا مناقشة اغتصابي لفتاة لم تبلغ الثامنة عشرة..
قلت لهم لن أجلس في اجتماع من أجل (...)، طبعاً هذا
الموقف أضحكهم، وفي اليوم التالي أخبرتهم أن المشكلة
انتهت.. البنت وأبوها تحدثا مع الرئيس بهذا الخصوص..
وإثرها رفض أمين الصندوق صرف المبلغ الذي دفعته تعويضا،
ادعى أنه مبلغ كبير، قال له الرئيس لا تكتب سبب الصرف
الحقيقي تعويضات عن (...) مانا، قل صرف المبلغ عن
طريق لجنة أمن سرية!! كل شيء نحيله إلى السري.. بما فيه
قتل المعارضين.. المئات من لحمنا شاركت في جنازة قتلهم،
لأنهم عارضوا.. ادعينا أن الموساد وراء العمليات.. ماتوا
أبطالا بدل أن يموتوا معارضين!! نقلت القتيل ونمشي في
جنازته.. يوما ما سيقتلوني ويمشون في جنازتي، ويحملون
دمي للموساد الشماعة التي نعلق عليها أخطاءنا..

لو قصصت عليكم أخطاءنا لأصبتُم بالذهول.. أشياء كثيرة أذكرها.. أشياء كثيرة تغوص داخلي.. تتحول إلى كوابيس تشقني.. لماذا تحولت إلى هذا الكابوس يا مانا!! أليس من العقل أن تترك اللعب على الحبال للاعبين جدد، تنزاح أو تتقاعد فتصير واحدا من الناس، لا تهش ولا تنش.. ليس بإمكانني أن أفعل ذلك، ملف فضائحي في صندوق الرئيس متورم.. إن نشر بعض ما جاء فيه!! قضية واحدة ستطيح برأسي بين الأرجل.. سيتصارخون: العميل الشيطان ابن الجحيم، سنوات يلعب علينا، يضحك على لحانا.. أموال الأيتام والأسرى والشهداء والمحتاجين شرب بها الخمر، صرفها على عرايا اليهود بحجة الثورة والنضال.. من سيصدق أنني كنت شريفا.. لن يصدق أحد، لأنني لم أكن في أية لحظة شريفا، منذ أن خرجت من السجن قررت أن الحياة فرص لا يجوز تضییعها.. لم أضیع شیئا.. لكنني سأضیع يوما ما.. ستكون فيافي ضياعي تحت الأرجل الغاضبة.. هذه الصورة تلازمي ككابوس في منامي ويقظتي.. مانا الفدائي خائن.. مانا خدعنا يا ناس.. بين حانا ومانا ضاعت لحاكم يا ناس.. ها هو بين أيديكم، عفوا نقصد بين أرجلكم، ضعوه تحتها.. المصير المأساوي الذي أتخيله يجعلني قشة في مهب الريح.. صحيح أنني لا أرجم الشيطان بالحجر السابع، لأنني أريد الإبقاء على شعرة معاوية بيني وبينه، لكنني أشعر بأن كيل الناس طاف، خاصة بعد البراءة التي غسلت بها حانا الخائن، بل وفوق ذلك جعلته ركنا من أركان أوصلو.. أليس من حقهم

أن يلعنوني إلى ما لا نهاية.. نهايتي اقتربت من نهايتها، ماذا أفعل؟! هل أعلن العصيان على الرئيس؟ هل أصفه بالخيانة، أنتمي إلى المعارضة؟ ما الذي سيحل بي إن كشف بعض أوراق ملفي المخبأ عنده؟! إنني على شفير هاوية، فماذا أفعل؟!

* * *

أرجو ألا تصدقوا الكلام الذي أقوله عن نفسي، أنا مناضل فلسطيني منذ نعومة أظفاري، وسأبقى حتى آخر يوم في عمري، الذي أرادني أن أقول هذا الكلام السخيف هو المؤلف، لأنه متعاطف مع الأبواق الثقافية الجالسة على الكراسي منذ النكبة، وما زالت تنظر بخيانة القيادة، أنا واحد من هذه القيادة التي تتهم بالعمالة للأنظمة العربية، وأمريكا وإسرائيل.. لم يتركوا واحدا في القيادة دون هذه التهم، ويقولون الشرفاء ماتوا، أو انسحبوا.. وإن أردت أن أصير شريفا من وجهة نظرهم، فعلي أن أموت أو أنسحب، ولمن نترك قيادة النضال؟ لا شك أن الثورة في أحيان كثيرة تأكل نفسها، لأن المواقع التي نتصارع معها أكبر مما تتصورون، فكيف أنسحب؟ ولماذا أموت؟!

علاقتي بالناس توترت بعد الإشاعات التي روجوها عن "سعدة"، وسعدة هذه كأنها مقطوعة من شجرة، لا شك أنها تنتمي إلى عشيرة في البلدة، لكن والدها مسكين على البركة، وأمها قوية، لعبة حبال كما يقولون، قالوا إنها واحدة من عناصر التجسس التي ورطها حانا، بدأت الحكاية بعد انتحار

خالد الجابري، ذكر من الأسماء التي ورطته "سعدة" التي تعمل سكرتيرة في مكنتي، لم أكن أعرف أنها عميلة للموساد، توسط لها حانا بالعمل عندي، ربما اعتقدت حينها أن بينهما ودا، فاستبعدت أن تكون خائنة!!!

الصحيح، أن "سعدة" تمحكت بي، فاقمت علاقة محدودة معها، لكن الذي أنا متأكد منه هو أنني لم أتصور معها عاريا، كنت حذرا في هذه العلاقة، ليس خوفا من الموساد، كما تهيا لي، ولكن خوفا من مؤامرة يحيكها ضدي الرئيس عن طريقها، تعودت على مطباته، حتى تضخم ملفي عنده، لذلك يمكنتني دائما من اليد التي توجعني، وأكثر ما يوجعني ما يعتقد أنها فضائح نسوية. ما زلت أذكر تلك الصورة شبه العارية التي صورها لي مع مومس يهودية بعثها إلى غرفتي في أحد فنادق روما.. حينها قال ضاحكا: يبدو أنك لا تصبر على مفارقة النساء، كيف عرفن أنك وصلت، فجاءت إحداهن إليك مباشرة.. المشكلة أنهم صوروك عاريا، ألا ترى هذه الصورة.. كانت مثل بصقة على وجهي.. أردف ضاحكا: لا تخف، أنا تصرفت، العملية مجرد ابتزاز.. دفعت لهم خمسين ألف دولار، أعطوني مسودة الصورة التي مزقتها بدوري، ليست هذه النسخة للتهديد، فقط كن حذرا، خاصة في تعاملك مع النساء، وتذكر أن الاغتيال الذي حصل لجارك في روما قد يحصل لك إن لم تكن حذرا، فالذين صوروك في الخفاء يشستطيعون أن يقتلوك دون أن تدري..

كنت متيقنا أنه وراء كل كلمة قالها، بل إنه يصر على أن

يشعرنى بأنه الفاعل، ليزداد الضغط علي، عودنا على أنه
يمسك بأيادينا التي توجعنا، ونجح!!

لم تكن علاقتي بسعادة تتجاوز العمل، واللحظات الجسدية
المسروقة في دوامته، كنت حريصا على أن تبقى علاقتي
بالنساء مجرد ممر، نساء أجرة، الواحد فينا لا يحتاج إلى
المصائب النسوية، وعلى هذا الأساس فوجئت بالعلاقة القوية
بين حانا وسعدة . بعد التحقيق في أمرهما، اكتشفت أن
الملعون وضعها في مكتبي ليعرف أسرار التنظيم، لقد عرف من
يختار من فرائسه، لكنه أخي الأكبر، وإن كنت في أحيان كثيرة
أشك بذلك.. لم تكن طفولتنا مستقرة، أمي تحبني أكثر منه،
تصفني بالعاقل، وتصفه بالأهوج . حقد علي من خلال التمايز
بيننا، واستمر حقه إلى أن أنقذته!!

طردت سعدة من مكتبي، شعرت أنها لم تكن تتعامل مع
حانا فحسب، بل تتعامل أيضا مع الرئيس، ربما دفعها حانا
إلى هذا المصير المزدوج، ليضرب عصفورين بحجر واحد من
خلال علاقتها بزعيمين أنا والرئيس.. لا أعرف إن كانت لها
علاقات مع الرئيس، كانت تدعي أنها متفانية في خدمتي، بل
أطلعني على بعض الأسرار التي عرفتها عن الآخرين، بل ربما
أعطاه حانا هذه الأسرار ليوثق العلاقة بيني وبينها.. عالم
مشوه بالدسائس، لا تأمن فيه على أكلك وشربك في غالب
الأحيان!!

تبدو الأمور الآن أفضل من الزمن السابق، أوصلو مهدت

الطريق لنا كي نكون سياسيين عظماء، قصري والحمد لله يدار بالريموت كونترول، ولا يخلو يوم من طلعة مهمة على القنوات الفضائية، سيادة الوزير، سعادة الوزير، فخامة الوزير.. نسيت أن أخبركم أنني الآن وزير الداخلية، يعني "أبو الكل"، واللي ما يعترف بأبوتي بخرب بيت أبوه!!

* * *

كيف ستكون نهايتنا مع توتر الأوضاع مؤخرًا، مع الانتفاضة الأخيرة؟ الشيطان لا يعرف هذه النهاية . ونتيجة لكوني رئيس لجنة التنسيق الأمني، وحانا أحد أعضائها البارزين . أظن أن الأمور ستكون في أيدينا ما دمنا قادرين على لم الحبال متى أردنا، ونرخيها متى أردنا..

لماذا أحدثكم بهذه الأمور التي لا يصح الحديث عنها؟! سأتمرد على قلم المؤلف، وأعلن منذ هذه اللحظة أنني كرم الماضي، ابن الثورة التي لا يمكن أن يفرط بها إنسان فلسطيني مهما كان مشوها . هذه حقيقة يجب أن تؤمنوا بها، حتى العملاء لا أشك بأنهم يحبون فلسطين أكثر من الوطنيين أحيانًا، الظروف السيئة لا غير هي التي أجبرتهم على أن يكونوا عملاء، صدقوني أن كثيرا منهم حريص على الصلاة أكثر من الوطنيين، فهم يتعذبون ليل نهار ليكفروا عما انغمسوا فيه من الدنس، ألم تقرأوا رواية "المتشائل" لإميل حبيبي، كلنا متشائلون بطريقة أو بأخرى، مجبرون على التعامل مع الظروف الراهنة لنحافظ على صمودنا فوق تراب وطننا..

أجبرني ظروف أحد المعتقلين المتهمين بالخيانة على قراءة

هذه الرواية، قال لي يومها، قبل أن تحاكمني اقرأ رواية المتشائل، يجب أن نكون إنسانيين في تعاملنا مع هؤلاء. لقد بت الآن أشعر بأن حرص حانا على وطنه دفعه إلى التعامل مع عدوه، جعله هذا التعامل ندا واقعيا للإسرائيليين أكثر من حرص الثوريين أنفسهم، والذين ما زال بعضهم يردد الشعارات الوطنية كالطبل الأجوف من الفنادق الفخمة.. طبعاً ستقولون هذا كلام ديماغوجي، براجماتي، أو أي مصطلح آخر لتعبروا من خلاله عن مقولتكم التي تلخصونها بقولكم: هذا آخر زمن!! صار فيه العملاء يعلموننا الوطنية!!

(5)

سعدة

لم يسمح رجال البلدة للنساء أن يلعبن دورا واضحا في الخارطة السياسية، لأن خارطتهن التي فرضتها التقاليد لم تتجاوز أسيجة المنزل، والحقل، والفراش، والثروة.. وهلم جرا. فسذاجة أبي وطيبته لم تتح المجال أمام أمي القوية، صاحبة الرأي الفولاذي، أن تمارس دورا فاعلا خارج المنزل لكون البلدة تكسر أرجل المرأة التي تخرج لمواجهة الرجال وتحديهم، لذلك لقب أبي بالمحكوم من أمي، لا كلمة له بين الرجاجيل كما يقولون. صار أبي رغم طوله الفارع مسكينا في البيت وخارجة..

من جهتي لا أعرف الظروف التي أدت إلى هذا الوضع المزري، إنما أستطيع أن أتكهن: والداي لم ينجبا إلا أنا، يقال إن العقم الذي ألم بأمي بعد ولادتي صار عندها عقدة نفسية هيمنت إثرها على أبي حتى لا يتزوج أخرى، ولأن الرجل لا يكون رجلا في بلدتنا إلا بالأولاد الذكور، فإن

وضع أبي غدا سيئا، خاصة أنه لم يستطع أن يحكم أمني بطريقة الذكور الأشاوس، فلازمه المحكوم، يعيرونه بأمواله التي ستكون لأولاد أخوته الذكور.. بلدتنا لا تورث النساء، ولا دخل للدين عندهم في هذه المسألة، إذ ليس من المعقول أن يأخذ الزوج امرأة وفوقها أرض، "هذه قلة عقل ما بعدها قلة".

بين الأب المحكوم والأم القوية ترعرعت، صرت قوية كما الرجال، طالعة لأمي التي توصيني دوما: إن لم تكوني أخت الرجال صرت ممسحة رجال. وصفوني بالذكر، الخنثى، أبو الشباب، أبو علي، الشاب سعد.. قالوا الله يكون بعون اللي بدو يتزوجها.. معقول هذه يتزوجها واحد، لازم هي تتزوج مره، أي والله الشباب أنعم منها. لم يتركوا لي فرصة كي أعيش أنوثتي، نقت عليهم، لعنت البلدة وأتخن شنب فيها، حققت على والدي، أكان من الضروري أن ينجباني..

لم أكن قبيحة.. ولا جميلة أيضا، أنا وسط في كل شيء؛ في الطول والعرض، الحسن، اللون، الشعر، التعليم، اختيار الملابس، التعامل مع الآخرين.. في أي شيء آخر يخطر على بالك!!

بدأت حياتي تنقلب رأسا على عقب بعد أن تعرض لي حانا في معرض العنب، كنت أقف بجانب قطف العنب الضخم الذي شاركنا به، للمنافسة على أكبر قطف. نال قطفنا المركز الثالث. مر حانا، سمعت عنه، لم أعرفه جيدا.. توقف عند القطف طويلا.. تأمله بصبر.. نظر حوله، قال

هامسا: أظن أن صاحبة القطف أحلى منه، أنا أراها أجمل الجميلات.. هذا الكلام بداية نكشت أنوثتي.. رفرق قلبي.. أبديت خجلا وصمتا.. قال: هل أطمح بلقاء مع صاحبة القطف اليوم أو غدا؟! قلت ما زحا بعد أن حلت علي جرأة الذكور: أتريده لقاء على سنة الله ورسوله.. رد: ما أحلى سنة الله ورسوله!!

هكذا بدأت الحكاية بيننا، ويا ليتها لم تبدأ.. فهي منذ بدايتها سلسلة من القيود والآثام والعري الذي جعلني ألعوبة بأياد كثيرة.. أشياء كثيرة جعلتني مومسا بكل معنى الكلمة، هذا أفضل وصف أراه مناسبا لحالي بعد أن ضاع شرفي بين يدي حانا وفي حجر مانا، وكل من جروهم إلى هاوية العمالة بالإسقاط والتعهير!!

حدثت عدة لقاءات بيني وبين حانا بعد لقاء قطف العنب، كان رومانسيا متعففا، أظهر حرمة القبلة، ادعى أن العلاقة بيننا ستكون نهايتها الزواج، لا شك أنني كنت فرحا بهذه العلاقة، لا يهمني إن كان يسكن في سقيفة، أو إن كانت أمه غريبة، أو أنه لم يكمل تعليمه وأنا أنهيت الثانوية، حرصت على أن أنخلص من الذكورية التي لفوها حول عنقي لأغدو كالشرفقة، وربما للتخلص من عار أبي الضعيف أمام أمي، و من عزوف الشباب عن الزواج من بنت أمها أقوى امرأة في البلدة . يرددون: يا ويل ويله اللي حماته رايحه تكون أم سعدة الطالعة لأمها.. غراب البين أحسن له منهما!! يتزوج بومة ولا يتزوج سعدة..

أصبح حانا بالنسبة لي منقذا بعد أن تجاوزت الثامنة عشرة، أغلب بنات بلدتنا يتزوجن في الخامسة عشرة.. . صرف عليّ بكرم.. . حرص على سمعتي، جعل اللقاء بيننا يتم في أغلفة التكتّم والسرية.. . لم أشك في لحظة أنه سيغدر بي، أو أنه سيأكلني لحما ليرميني عظما.. . ليته رمانى.. . ليته لم يورطني في أعمال الدعارة والتجسس.. . فكرت كثيرا بالانتحار الذي حاولت تعاطيه مرارا بلا جدوى!!

يوم أخبرني أنه سيتقدم لخطبتي بعد يومين على الأكثر، طرت من الفرح، لم أملك سعادتي.. . طرت معه.. . قلت له: أنت حبيبي إلى الأبد، وأنا اليوم معك أينما تذهب.. . قال: سنطير من هذه البلدة اللعينة إلى القدس المتحررة إن أردت. طرنا إلى القدس المتحررة.. . درنا في شوارعها الغربية.. . لا أعرف إن حدث فعلا حادث في شارع مواز.. . قال لي: إن علينا أن نذهب إلى فندق قريب حتى لا يشكوا بأمرنا، يشكون بأي عربي يمسكونه في الشارع.. . طلب من عامل الفندق بالعبرية غرفة.. .

أوصلنا الفراش إلى غرفة مؤثثة جيدا.. . طلب حانا منه أن يحضر كوبي عصير.. . أحضرهما بعد برهة صمت بيننا.. . شربنا.. . لا أدري بعدها ماذا حدث معي.. . يبدو أنني نمت بعض الوقت.. . صحت، أخبرني حانا أنه نام هو الآخر مثلي بعض الوقت.. . قال: الشوارع آمنة، علينا أن نغادر.. . غادرنا.. . وعدني أنه سيأتي بعد يومين مع أمه لخطبتي.. .

مضى أسبوع دون أن يحضر، مر الأسبوع الثاني.. خفت أن يكون حصل له مكروه.. بعد أسبوعين من الغياب مر أمام بيتنا، أدركت أنه يريدني أن أتقابل معه في المكان الذي نتقابل فيه كالعادة في المدينة..!! في زاوية مواربة بمكتبة البلدية، نتهامس كأننا نقرأ كتابين في عالمين منفصلين.

لما التقينا هرعت إليه بعيني أسأله عن سبب غيابه المفاجئ، أظهر غما وهما.. قال: مصيبة حلت على رؤوسنا أنا وأنت.. في اليوم الذي قررت فيه أن أحضر مع أمي لزيارتكم استدعاني أبو نعيم إلى العمارة (مركز الاستخبارات)، هددني بكشف السر وفضحي أنا وأنت معا، تحديته بأن العلاقة بيننا شريفة، وأنني سأخطبك، لكنه فاجأني بصور عارية، أنا متأكد أنها لعبة مخابرات قذرة، مورست ضدنا يوم أن كنا في القدس، يبدو أن العامل الذي طلبنا منه العصير أحضر لنا كوبين مخدرين، خدرونا، نمنا، عرونا، صورونا في أوضاع جنسية مختلفة، نبدو أنا وأنت بلا شرف، لو وصلت هذه الصور لأيدي الناس لقتلونا رجما.. لم أصدق ما حدث.. الصور فاضحة، أنا وأنت عراة.. لن تصدقي.. يريدنا أنا وأنت معا لي طرح علينا شروطه، قلت له: سعدة بنت ناس، وليس من المعقول أن تجيء إلى العمارة، أعطاني صورتين لأريهما لك..

ربما أغمي علي للحظات عندما رأيت الصورتين، لن أعيش دقيقة واحدة لو رآها أبي، أو حتى أمي.. أو رآها الناس.. وينك يا شرف.. هجمت على حانا أقبل يديه أن

يحميني.. أنا امرأة.. أنا كبش الفداء.. قال: لا تخافي.. طمأنني، بل أكد أن هذا الموقف لن يمنعه من إتمام الزواج بيننا.. إنما يريد حل المشكلة أولاً، ويرى ما هي مطالب الكلب "أبو نعيم".. المهم السترة لنا، ولي تحديداً!! أكد ذلك باستمرار..

هكذا بدأ تعاملني مع جهاز الموساد.. لم يعد يهمني إن كان حانا أو هم الرأس المدبر الكامن وراء الصور.. رغم أنني متأكدة مئة بالمئة أن حانا وراء هذه المؤامرة العاهرة، لكنه اعتبر نفسه ضحية مثلي، صدقته، وربما هو أيضاً صدق نفسه أنه ضحية مثلي، وما المانع من أن يكون ضحية مثلي في عالم الموساد الذي يروج بالقاذورات!!

جنس، تجسس، إسقاط، إثارة، فتن.. هذه بعض الأعمال التي أنيطت بي.. لقد قدمت عذرتي بلا ثمن لحانا بعد ذلك بحجة أننا شبه متزوجين، إذ ادعى بأن الجهاز لا يريدنا أن نتزوج على اعتبار أن انفصالنا أنفع له، كما أن زواجنا - من وجهة نظر الجهاز- يسقط مفعول الصور، وحينها قد نتمرد عليه، إذ لن يشك الناس بأن الصور العارية أخذت لنا بعد الزواج، ومعنى هذا أن الناس سيحاولون تعقب من حاول تصوير الزوجين في لحظاتهم الحميمة، وقد يقال هذا عمل موساد للتفريق بين الزوج وزوجه، لذلك هدنا الموساد بفضح أمرنا قبل أن نتزوج إن أصرينا على الزواج، فكان خيار عدم الزواج لأنه الطريق الأسلم لنا ولهم، بعد ذلك أوصلوني إلى أن أكون مومساً بشهادة شرف، إذ توسط لي حانا عند أخيه مانا، فأصبحت سكرتيرة في مكتبه، أمام الناس نائبة

ومناضلة.. وفي الغرف المنزوية عاهرة.. قبلت هذا الدور في
الباطن والظاهر!!

* * *

مهمات ثورية!! هذه الوسيلة التي أخرج فيها من البيت بلا
رقيب أو حسيب.. طلبني بعض الشباب للزواج بعد أن
أصبحت ثائرة.. رفضت بحسرة.. حجتي الواهية أنني وهبت
نفسي للوطن.. حيوا هذه التضحية.. الأحزاب المعادية طعنت
في شرفي، شتمتني.. عملت الدسائس.. لكنني كنت محمية
من أقوى التنظيمات، ومن أقوى مراكز التنظيم تحديدا، إذ
استطعت بعلاقاتي مع مانا أن أقنع الآخرين بأنني أفضل من
يصلح لهذا المنصب، وأنني الوحيدة الحريصة على مانا
كحرصي على نفسي.. ولأنه غير متزوج، وأنا غير متزوجة
فمن الأولى أن يحافظ أحدا على الآخر في مثل هذه الظروف
الحرجة. كان حانا أيضا مؤثرا على أخيه في توثيق عرى
التعاون بيننا، خاصة بما يبعثه له من رشاو وهدايا..

استدعاني الرئيس بعد إحدى الحفلات الوطنية على انفراد،
طلب مني أن أساعده في إعطائه بعض المعلومات عن مانا،
خاصة إن كانت له علاقة بالموساد. كلفني ببعض المؤامرات
ضده لبحكم يده حول رقبة أكبر مسؤول أمني في تنظيمه!!
غدوت مهمة في عيونهم!! فاللاعبون في قمة الهرم، كما
تعرفون، مغميون بفضل كونهم في أحيان كثيرة في الهوا سوا
كما يقال، وهم في العادة صناع القرار، وصناع الفضائح،
والكل فيهم يمسك الفضائح على الآخرين؛ يحوشها للتهديد

والابتزاز، يهددون ويبتزون كأنهم دمی تتلاعب بهم أيدي
الخفاء في ليل عاهر.. الشرفاء ماتوا.. أو انسحبوا.. بلا
تعميم.. حكمة ردها العوام لبيان عجزهم وتنبئتهم!! كنت
عذراء قوية؛ لكنهم عهروني.. أصبح داخلي يحترق حسرة
على المصير المأساوي الذي يعيشه البسطاء يصفقون للشياطين
تلبس ملابس الإنس!!

* * *

والداي لم يعودا يرضيان عن ممارساتي، يريان أنني
أتعذب.. أفقر مرتعبا مع همسة طفل في الحارة.. تصر أمي
على أن تزوجني من أول طارق باب!! لا أقبل.. كل مرة
تهدد فأكسر تهديدها بإصراري.. تبكي أحيانا لأجلي فينكشف
لي ضعفها العاري من الزيف... أما أبي فهو لا يهش ولا
ينش.. ترك الأمر كله لمجادلات أمي معي.. إن كانت أمي
لم تقنعني.. فهل يستطيع أن يفعل هو..

استحلفتني أمي بالله أن أحدثها إن كانت هناك علاقة غير
شرعية بيني وبين مانا، قالت بحسرة: "الناس يقولون إنك أكثر
من زوجة بالنسبة لمانا، هو غير متزوج.. لماذا لم يطلبك
للزواج إن كان يصر على أن تكوني بجانبه، لا حفله ولا زفه،
فقط أن يعقد القران عليك منعا لكلام الناس" ..

أشفقت على أمي.. بدت لي أكثر من امرأة عاجزة في
الوجود، كأنها انهارت مرة واحدة، صارت طفلة وديعة
تتوسلني أن أبتعد عن المكتب والثورة التي لم نجن كما تقول
من ورائها إلا الهم ووجع الراس.. ماذا لو عرفت أنني أتعامل

مع الموساد، قد تجن أو تأنيها نقطة على القلب وتروح فيها..

لن أخبرها بهمومي.. ماذا ستفعل لي غير البكاء.. كارثة حلت عليّ، ويجب أن أتحملها لوحدي، الفضيحة الآن لم تعد تهمني.. ما يهمني أن أحافظ على وجود والديّ المستقر في شيخوختهما.. كبرت أمي فلم تعد تتحرك بقوة كما كانت تفعل بالماضي.. السجارة غدت تراقص بين أصابع أبي الذي ضعف نظره وتساقطت أسنانه!!

حلت المصيبة على رأسي ورأس والديّ بعد انتحار خالد جابري الذي ذكرني في اعترافه، وضعوا أبي في دائرة التهمة، اعتبروه جاسوسا، وتبرأوا منه في الجرائد، وتبرأوا مني.. انقطعت عن المكتب.. التزمت البيت.. سمعت أخبارا عديدة عن العشيرة التي ستخطفني يوما لتطخني بالنار، وترميني للزواحف في بئر خربة.. أوشكت على الجنون.. كلما حاولت الخروج لأتصل بحانا أو مانا أو الشيطان وقف أبي وأمي في وجهي.. لم يعد في البلدة أحد يشك بأني عديمة الشرف، وعميلة للموساد.. متى سيقتلونني؟!

تنمر أبي حتى صار يتوعد أمام أمي أنه سيقتلني بالسكين.. بل قال لها: إنه يحمل السكين كل يوم لقتلي، ثم يلعن الشيطان.. يتوعد إن خرجت من البيت أن يقتلني ويصلبني على جدار الحرم أما الراح والجاي ليغسل عاره بيده، فيموت مرتاح الضمير.. أي عار غمستهما فيه؟! صرخ في وجه أمي: "هذه تربيتك الفلتانة.. الحق عليّ اللي أرخيت

الحبل إلك ولبتك على غاربه" .. غدت أُمي امرأة هشة وأبي رجلا متوحشا!!

ليس أمامي إلا أن أبقى مسجونة في هذا البيت إلى مدى الحياة، سيقولون مجنونة، وربما حينها يعفون عني، سيقتلوني لو خرجت إلى الشارع، لم أعد أطيع النظر إلى عيونهم.. أعرف ما الذي عملته.. لم تنفع حجج والدي بين الناس:

- ذكر الاسم لا يعني أن بنتي عديمة الشرف، تعرفون أن البنت تعمل مع الثورة، ولأنها كذلك فإن الموساد يسعى إلى تشويه سمعتها؟

- الولد الذي انتحر ذكر اسمها وتفاصيل مخجلة عنها معه، كان لها دور بارز في إسقاطه .

- من قال لكم أن رسالته ليست خطة مدبرة من الموساد؟! قتلوه بعد أن أجبروه على كتابة اعتراف يدين الثوار!!

- نحن نعرف وأنت تعرف أن من ذكرهم في رسالته أردأ ناس البلدة، يكفي حانا ليوسخ عشيرة بكاملها لا ابنتك فحسب، كما أن ابنتك تعمل عند أخيه!!

- أتريدون أن تأخذوا البنت لتقتلوها بدون تحقيق؟ إذا قبلتم هذا فإليك البنت موجودة في إدار، خذوها متى أردتم واقتلوها!!

- نحن لا نريد قتلها الآن، نريدها أن تنضب في بيتك إلى أن يفرجها الله، وتظهر التحقيقات الحق من الباطل، ويعترف

المزيد من العملاء عن علاقتهم بها، الثورة الآن تحقق في الموضوع!!

زاد الطين بله.. أن بنت التهشامي بعد أن ورد اسمها في الورقة، ضربها أبوها حتى أوشكت على الموت، قال الناس إنها اعترفت، وأكدت ما نسب إليها، لكنهم كَتَمُوا اعترافها، واكتفى والدها بسجنها، ثم أعلن بعد أسبوعين أنها ماتت ميتة طبيعية..

قتلوها، ودفنوها بدون ورقة من السلطات.. خرج في جنازتها أبوها وثلاثة رجال من أقاربه حملوا النعش الذي يحتاج إلى أربعة أكتف.. تأكد الناس في هذه اللحظة أنها عميلة، وأن والدها غسل عاره بيده، فاكتمى بهذه الجنازة دليلا على غسل العار..

ليت أبي يفعل مثله فيخلصني من هذا السجن الذي يخنقني.. أفكر الآن بطريقة جدية للانتحار، كيف أنتحر.. قالت أمي: الطريقة الأفضل لانتحارك أن تحملي سكيناً، تهجمي على أي جندي من جنودهم، حينها سيطلقون النار عليك، وتموتين، فتكوني على الأقل مت بشرف!! لم تطلع أمي والذي على هذه الخطة.. ربما اتفقت معه، لكنها تشعرني أنها خطتها!!

لم تسلم أمي من تهمة العمالة: قالوا طق الجرة على ثمها تطلع البنت لأُمها..

قالوا عن أبي: عامل فيها مسكين.. أكيد تمسكن حتى
تمكن.. فرخ البط عوام.. البنت وأبوها واحد!!

* * *

في ذلك اليوم الشتائي، بعد صلاة العصر تحديدا، كانت
الشوارع شبه خالية بسبب حصار الجنود للبلدة، ومنعهم الناس
من التجول فيها، إلا في حالات الضرورة، وللنساء فقط .
حملت سكين المطبخ، نزلت إلى الشارع، توجهت إلى أقرب
نقطة، اقتربت من أول جندي.. هجمت بالسكين عليه.. هذه
أفضل الطرق إلى الانتحار.. أطلقوا الرصاص علي.. وقعت
أرضا.. غبت عن الوعي.. أو مت..

صحوت بعد يومين من الحادث.. لم أمت.. رأيت
وجهي والديّ يحيطان بي.. ماذا أفعل لكما أكثر من محاولة
الانتحار الشريفة التي فشلت.. إذا أردتم موتي فاخنقاني الآن
لتغتسلا من عاري. سمعتهما يتحدثان ببراءة عن الثورة التي
أعلنت في إذاعتها قيام إحدى المناضلات بالهجوم على الجنود
بالسكين، كأنني جزء من هذه الثورة الضخمة!!

الناس في البلدة قالوا: هذه خطة مدبرة بين الموساد وأهل
البنت، حولوها بذلك إلى وطنية، سيأخذونها عندهم في
السجن!! لا يهمني الآن كل ما يقولونه.. حتى محاولة
الانتحار الفاشلة جعلوها اتفاقا، الناس ليس لهم إلا الكلام،
الحبة عندهم تصير قبة، والخبر حكايات وروايات!!

مكثت في المستشفى أعالج شهرين تحت حراسة مشددة .
اتصل بي حانا خلالهما ثلاث مرات، قال في المرة الأولى:

ما الذي فعلتيه.. قلت: ما رأيت وسمعت . أغلقت الهاتف في وجهه . وفي المرة الثانية قال: أرجوك، لا تغلقي الهاتف، أنا لا أستطيع أن أراك مباشرة، لا أريد أن أورطك أكثر مما أنت فيه، ولكن تأكدي أننا سنقف إلى جانبك، سنوظف ما قمنا به لصالح الجهاز.. أغلقت الهاتف، لأنني لا أريد أن أسمع المزيد من الوعود والتهديدات، لينشروا صوري العارية، أكثر من هالقرء ما سخط الله.. المرة الثالثة، قال سعدة أرجوك، لا تغ.. فأغلقت!! قررت ابتداء من هذه اللحظة أن أعمل بوطنية خاصة..

حملوني إلى السجن، كان الحكم عشر سنوات، حيث روعي في جلسة سرية، حضرها المحامي، الظروف السيئة التي مررت بها بسبب اتهامات تعاملي مع الموساد.. قبل أن أدخل إلى سجن النساء العام قال لي المحقق: ستعملين في السجن بصفقتك تابعة للجهاز، أنت تعرفين أنه بإمكاننا أن نؤذيك حتى في السجن، أعدك أننا سنفرج عنك بعد سنة أو سنتين على الأكثر.. كانت في فمي بصقة ضخمة.. قذفتها في وجهه، ثارت أعصابه، ضرب، بصق، قال: خذوا العاهرة إلى السجن لتدود عشر سنوات!!

* * *

كيف أصف لكم السجن، مليء بالمدمنات اليهوديات، وبالجنائيات العربيات، وبنا عشر السياسيات.. لم أعد أعترف في ذاتي بأنني عميلة، تصرفت على أساس أنني وطنية، ملأت أخبار عمليتي الصحف، عرفت بها السجينات السياسيات،

رحبن بي، قدمن لي ما أحججه من رعاية.. اللعنة عليهم كيف استطاعوا أن يجروني إلى الحضيض، اللعنة عليك يا حانا، أيها القدر، لقد حاول أن يتصل بي حتى في السجن، رفضت، لا أريد أية صلة بـماضيّ كله، لن ينشروا صوري لأنها مع حانا، قد يدبلجونها مع غيره، لكنني لن أتأثر. منذ هذه اللحظة أنا منتمية إلى هذا الوطن، مناضلة لا تتنازل عن حقوقها الوطنية مهما فعلوا بها من مؤامرات!!

قرأت المئات من الكتب الثورية، سبع سنوات ونصف قضيتها في السجن وأنا أقرأ، لم أترك كتاباً وقع بين يديّ إلا قرأته، ليس من حقهم أن يكونوا ضدنا في السجن، تعلمت الإنجليزية فأتقنتها، تعلمت العبرية فأتقنتها، شاركت في إنتاج مصنوعات نسوية شعبية، أنا الآن امرأة مختلفة، سأكون مناضلة حقيقية، لن ينسى الناس أخطائي لا بأس، لكنني سأثبت لهم أنني غدوت امرأة جديدة، مات والدي بعد عامين من سجن، لا زالت أمني تأتي لزيارتي في الشهر مرة، لم تعد المسكينة تمتلك أية قوة، لقد أنهكها الهم، ربما لن تعيش حتى أخرج من السجن.. يتحدثون الآن بعد أوصلو عن ضرورة الإفراج عن السجناء، قرروا أن يفرجوا عن سبعة منا، كنت واحدة منهم، رفضوا الإفراج عن ثلاث محكومات مدى الحياة. رفضنا قرار الإفراج الذي يستثنى الثلاث، حاولوا إدراجهن في القرار.. سنة أخرى قضيناها دون أن يتغير القرار، قررنا أن نخرج نحن السبع بعد عام من الرفض، لأن بقاءنا كما فهمنا لم يعد يخدم قضية الأسيرات الثلاث..

ثمانى سنوات ونصف قضيتها في السجن دون أن تتغير نظرة الناس إلي، بعض النساء جئن ليسلمن عليّ، ليس حبا لي، بقدر فضول لمعرفة آخر أخباري . لن أهتم بهم جميعا، أنا الآن امرأة مختلفة؛ أحرقت ماضيها بسنوات السجن، تقف الآن بصلاية، تتقن لغتين غير العربية، سأتحدى الجميع وأناضل من أجل وطني، من أجل أهلي، من أجل نفسي، سأثبت لهم أن ذنب الكلب الأعوج يمكن أن يصير مستقيما، بالثقافة، وبالعناد يصير مستقيما، لن ينكسر في استقامته؛ لأن متانته تلين لترفص، لتلعن وتقاوم!!

صرت عضوا فاعلا في اللجنة الثورية النسوية، حاولت بعض النساء التشكيك بثوريتي، أقنعت الجميع بتصرفاتي الجديدة، تأكدن أنني كنت ضحية، وأن حياتي الجديدة ثورة حقيقية، من منكن بلا أخطاء، فلترجمني بحجر، أنا سعدة التي ستبدأ حياتها من أول وجديد!!

* * *

ما زال حانا يحاول الاتصال بي، لا شك أنه سيحمل لي بعض التهديدات، سأنسفه، لن أؤمن بأنه أصبح ثوريا حتى وإن غدا عضوا فاعلا في اللجنة الأمنية، تحاشيته أينما لاقيته . هو أيضا لم يحاول التحرش بي، يخاف من ماضيه . . مانا نفسه لن يحاول هو الآخر رغم مركزه الكبير، فخامة الوزير، لن يتحرشوا بي؛ لأنني لن أتحرش بهم أو بمصالحهم، بل إنني لم أحضر الاجتماع النسوي الذي حضره الرئيس، لأنني لا أريد أن أذكره بوجودي، لن أذهب إليه فيما لو استدعاني، من لم يكن منكم بلا خطيئة فليترجمني بحجر أو بحجارة!!

الوحيد الذي تقرصني نظراته هو ابن عامر، يبدو هذا الرجل كأنه بلا خطيئة، كأنه قادم من عالم آخر يتدفق بالمثال والعنجهية، ومثاله يوجع أكثر مما يعجب . لم يصدق الناس أية إشاعات أثّرت حوله، إشاعات زرعها حانا ومانا، لم أشارك في أية مؤامرة ضده، حاول حانا مرة أن يدفعني إلى الارتماء في طريقه لإسقاطه، قال لي: حاولي معه، مجرد محاولة لنعرف عمق مياحه.. قلت: لن أحاول، لأنني أعرف رده مسبقا، الإعراض، لا شيء غيره، وربما الأذية!!

* * *

أسير في أحد الأيام الشتوية في شارع المدينة القليل المارة، تعرض لي متسول في هيئة بائع، قال لي: لا تحاولي إثارة المشكلات، أنا أبو نعيم، ألا تريدان أن تعودني إلى الجهاز والدائرة، دفعته بيدي بكل ما أملك من قوة.. كاد أن يقع أرضا.. أظهر صورة عارية لي، كنت وحيدة في الصورة.. صورة مدبلجة.. الرأس رأسي والجسد كأنه جسدي.. الملامح قريبة.. همس ستكون هذه الصورة على الإنترنت.. وتحتها عبارة: " المناضلة آسف العاهرة سعدة.. ارتعدت.. حتى هذه لم يضيعوها.. ماذا أفعل؟! هل أعود إليهم وأخسر نفسي مرة أخرى.. أم أكابر فأصمد؟! ليفعلوا ما طاب لهم!!

ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ قررت أخيرا أن أذهب إلى الرئيس وأحكي له الحكاية.. لعله يتدخل.. أخذت موعدا من سكرتيرته.. لم يتفاجأ بوجودي.. كأنه تابع ما يحدث

معي.. أردت أن أخبره عن القصة الأخيرة، كأنه يعرف كل شيء.. قال أعرف! أعرف! إنهم ما زالوا يضايقونك.. لا تخشي شيئاً منذ هذه اللحظة.. سأحدث مع مانا، وبطريقته سيسوي الأمور، إنما عليك أن تحسني علاقتك بحانا ومانا.. ولماذا حانا ومانا تحديدًا؟ قلت ذلك في نفسي.. وله بصوت خافت: أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس!! لن أخاف منهم، سأحسن علاقتي بمن تريد.. سلمت عليه، انشغل بالهاتف مباشرة!!

كيف سأفعل ذلك!! سأحاول قدر الإمكان أن أصطدم بحانا ومانا لأعيد العلاقة بهما.. لم يعد الناس يتحسسون من العلاقات المشبوهة، يبدو الوضع مليئاً بالבלادة.. لم يعد الناس يتحسسون من تحركاتي.. أنا الآن جزء مهم من هذه السلطة، أنا مناضلة، لها تاريخ طويل في السجن بعد محاولة فاشلة لاغتيال جندي!!

* * *

ذات مساء جاء إلى منزلي جيب عسكري، قال العسكري الذي يقوده، فخامة الوزير يريدك هذه الليلة. قلت: أي وزير؟ فخامة مانا!! ليس بإمكانني أن أرفض، الفرصة جاءت لوحدها أو مرتبة سيان!! ركبت معه.. ممرات متعددة سار بها الجيب.. وصلت أخيراً إليه، أقبل بحرارة.. رحب وهلل وبش ونش.. أهلا بالمناضلة الكبيرة.. رغم كل الظروف والملابسات فأنت مناضلة كبيرة.. لا يمكن الاستغناء عنك.. ستصيرين عضواً فاعلاً في اللجنة الأمنية، اخترناك لكونك

تتقنين ثلاث لغات، واللجنة الأمنية كما تعرفين فيها نحن والإسرائيليون والأمريكان، لذلك نحرص على أن يكون طرفنا ضليعا باللغات الثلاث..

كأن حليلة أو سعدية أو القردة ستعود إلى عاداتها القديمة، لم أمانع بذهابي مع مانا إلى الفراش، لم يعد أبو نعيم أو غيره يهددونني.. الرئيس، مانا، حانا.. تصرفوا، لن أسأل.. المهم أن ملفي غاف.. سأتركه ينام إلى الأبد.. قلت لمانا: أنا من إيدك اليمين لإيدك الشمال.. قال: وحانا.. كأنه أراد أن يتأكد إن كانت هناك علاقة بيني وبين حانا.. قلت له: لم أره منذ خروجي من السجن، لا أريد أن أراه إلا في لجنة العمل إن كان أحد أعضائها..

الشرفاء ينسحبون، أو يموتون.. ليس بإمكانني أن أنسحب، أو أن أموت.. حتى إن انسحبت أو مت، فهل أكون شريفة..

المرأة في بلدتنا لن تكون شريفة عندما تخوض غمار الثورة، فكيف أكون أنا شريفة؟ سؤال يحيرني.. لم تعد أمني تسأل عني.. كما أن البلدة لم تعد تهتم بأمرى كما يظهر لي في الظاهر.. الباطن لا يعرفه إلا أصحابه.. ماذا بإمكانني أن أقرر في هذه الدوامة من المتسلقين والانتهازيين وبائعي الضمائر؟

سأواصل عملي في اللجنة الأمنية، سأراوغ مع هذا وذاك.. النهر الآسن يجبر معه الصالح والطالح !!

هل تصدقون أنني بهذا السوء، إياكم أن تصدقوا هذه اللغة التي أدين بها نفسي، فما أنا هنا إلا من صنعة هذا المؤلف الناقم، الحاقد، الذي يكرهني ويكره كل من حولي.. نحن إن لم نتحرك في مقاومتنا في إطار السلام كما تحركنا في إطار المقاومة سنضيع، يجب علينا أن نوظف كل قدراتنا.. أنا شخصيا لست بهذا السوء الذي يصورونني به، وإن كنت أظن أنهم محقون في أشياء كثيرة.. لكن علينا أن نثق بقدراتنا.. أن نحسن الظن بالآخرين ليحسنوا الظن بنا.. إن كنا تعاملنا مع الموساد وفق شروط اضطرارية فإننا جبرنا هذا التعامل لصالح أهلنا، لن نخون الوطن مهما كانت الظروف، نحن من قاسى وطأة الميدان، وغيرنا نَظَر وجَعَر من المكاتب في الفنادق.. أليس من حقنا أن نثقوا بنا.. يجب أن نثقوا بقدراتنا، بأننا سنوصلكم إلى بر الأمان، إسرائيل ليست العدو السهل، هي العدو الأكثر صعوبة في التاريخ البشري، صراعنا معها إن بدا الآن صراع حدود فهو في حقيقة أمره صراع وجود.. لكن دعونا نغامر في صراع الحدود أولا لإقامة دولتنا المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، بعد ذلك يحلها الحلال!!

لا أريد أن أنظر، أنا لست أكثر من امرأة، والمرأة كما تعرفون لم تحظ بالنبوة، ولا بالفلسفة، إنما حظيت بقلب يتسع للعالم كله، فصاغت هذا العالم صياغة إنسانية!! هل أنا مخطئة لما قررت أن أكون مناضلة بطريقتي الخاصة؟! أليس من حقي أن أكون كما يكون غيري؟! هذا هو السؤال المصيري الذي علينا أن نطرحه في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا

النضالي!! لماذا نعطل نصف المجتمع، ونجعل النصف الآخر يحارب النصف الأول؟ من هنا لن ننتصر.. لا تقولوا: أفكارى كلمة حق يراد بها الباطل، وأنها أفكار خارجة من فم مومس أو عاهرة!! المهم في رأيي أن نعيد النظر في الكثير من القيم والأفكار السائدة فيما بيننا، وفي العلاقة بيننا وبين الآخرين!!

يجب أن تصدقوا بأنني لم أعد سيئة كما كنت في الماضي.. سوء الماضي فرض علي.. أسقطت، ماذا بإمكان نساءكم أن يفعلن لو حدث لهن ما حدث لي؟ ستقولون هذا افتراض غير منطقي!! لن تعرض نساؤنا أنفسهن لمواقف مشابهة!! أنا أقول فرضا!! فرضا!! كيف تتصرفون؟!

سؤال خطير!! كأنكم تغمرون رؤوسكم كالنعامة، لا تريدون الإجابة!! كيف نحارب عدونا؟ هل يكون بإغلاق الباب على نساءكم؟! ربما يقول بعضكم بالتربية الحسنة!!

كأنني لم أعد قادرة على التحدث بالمزيد من اللغة المزيفة.. لقد تعبت.. تعبت.. أتعبني هذا المؤلف الذي يرفض أن يغوص إلى داخلي.. عندما أقرر أن أعري هذا الداخل.. أكشف جرائمه.. أبين لكم كم أنا رديئة.. أكشف لكم فضائحي.. يهرب.. يهرب.. يهرب من لغتي الصارخة في هذا الجحيم.. يريدني أن أكون امرأة متزنة عاقلة.. أريد أن أكون مجنونة.. كتبت ما يقارب مئة صفحة للجنة الانتفاضة التي حققت معي.. كنت جريئة.. جريئة.. لم أعد أطيق الصبر على أعماقي.. لماذا يعرقلني؟ لماذا يدعي أنه كاتب!!

إنه كاتب سخيف مباشر تقريرى، لا يغوص إلى أعماقي،
 يخجل من هذا الغوص.. يردد في داخله: " وإذا بليتم
 فاستتروا" .. كان الأولى به أن يقول: وإذا بليتم فتعلموا من
 أخطائكم بتعريتها ..

أليس من حقي أن أعري داخلي المكتنز أكثر من خمسة
 عشر عاما آسنة بأعمالي في الإسقاط، وفي اصطیاد
 المراهقين .. كانوا في الجهاز يطلقون عليّ " المرأة الزنبك " ،
 يقصدون بذلك أنني لا أقف في مكان، دائما أتنطنط!! هل
 أروي لكم قصص إسقاطي للمراهقين؟! ربما ترغبون في
 ذلك .. لكن هذا المؤلف يخرسني .. يخرسني، أتمزق ..
 أتمزق .. أريد أن أتعري من هذه الأحمال الثقيلة .. أن أحكم
 على نفسي بالموت .. يخرسني .. كأنه يقول لي: اخرسي يا
 عاهرة، فهم يفهمون!! تمسكي بمواقف نضالك الحالي ..
 سأترك لكم المجال كي تتخللوا!! احذروا أن تقعوا فريسة ليس
 للموساد فحسب، وإنما أيضا للإيدز .. هل أخبرتكم بأنني
 أحمل هذا الفيروس .. وأنني نقلته إلى الآخرين .. حانا
 مصاب به .. مانا المسكين ما زال يكابر، يدعي أنه غير
 مصاب .. وربما هو مصاب ويخفي عني، كما أخفي أنا حالتي
 عنه .. كلنا في الهوا سوا .. كلنا في " الخرا " سوا!!

(6)

لحانا

لحانا أو دقونا (دقونا) مترادفان لا نفرق بينهما إلا في التعبير، فاللحية شائعة شعبيا أكثر من الدقن.. وقد تطلق أحيانا على من يطلق شعر دقنه، لتصير الدقن بلا شعر.. أما الفرق الحقيقي فيعني الاختلاف بين من يحترم دقنه أو لحيته، وبين من لا يحترهما..

قال العامة: " بين حانا ومانا ضاعت لحانا" .. يعني ضياع الناس بين ما يفعله بهم حانا الخائن، وما يفعله بهم مانا الانتهازي في هذه الرواية، من هنا ضاعت لحاهم أو دقونهم تعبيرا عن ضياعهم الكامل، وربما في الأمر إشارة إلى بلادتهم تجاه ما يعانون، لذلك لم يعد الواحد منهم في ظل الظروف التعسة قادرا على أن يتحكم بتصرفاته.. الرجال والنساء ضاعوا معا.. الرجال ضيعوا النساء عندما عدوهن عورات، قاصرات، ولايا، حريما، الجماعة أجلك الله، والمرة بعيد عنك.. وحانا ومانا ضيعوا الرجال!!

الناس في بلدتي عاطفيون في تصرفاتهم .. تجدهم لا يتركون أحدا من شرهم، وشرهم غيبة ونميمة .. في وجوه بعضهم بعضاً يُراؤون ويتوجهنون، كأنهم أخلص الناس بعضهم لبعض، وتبارى السكاكين لغرزها في ظهور بعضهم ببعض .. النساء يثرثن .. الرجال يثرثرون .. عيونهم وأفواههم مفتوحة بعضها على بعض، يتشاجرون على الدجاج الذي يدخل في أراضيتهم، يحسدون بعضهم بعضا على ما يحدث من تغيرات فيما بينهم؛ الأموات يحسدونهم .. القصص تتحول إلى روايات، والأخبار إلى فضائح ونكبات .. يتبارون في ذبح الذبائح لإكرام الضيوف، كرما مبالغاً فيه .. لا يستحق الأمر هذه المراءاة والوجهنة، يتمنون بعضهم على بعض، يعدون الكرم فراشا وغطاء، الواحد منهم مستعد أن يذبح ابنه لضيفه ليقال عنه كريم طلق البخل ..

أحدهم أحسن الله إليه، مات ولده في الصباح، فأخفى ميتته إلى ما بعد العصر بسبب غداء ضيوفه، خاف أن يحرم من هذه المتعة التي تعني أن يقال عنه كريم ..
الواحد فيهم مستعد أن يعيش على الكفاف أشهراً، لكنه يقترض المال لشراء ذبيحة الضيف ..

عندما تثور الفتن فيما بينهم ينقلب بعضهم على بعض لأجل أمور تافهة في غالب الأحيان، ترفع العصبية رأسها عالياً، فيغدو من الصعب أن تعقد المصالحة بينهم .. من الصعب أن يمر يوم دون خصام، لا يكاد مشروع من مشاريع الجماعة أن ينجح، مشروع الكهرباء فاشل، الماء،

الجمعية الخيرية، المجلس البلدي، إنشاء الطرق وتعبيدها،
عمال البلدية، الزواج. . مشاريع كثيرة فاشلة!!

من المستحيل ألا تعود امرأة "حردانة" إلى بيت أهلها بعد
زواجها بشهر أو شهرين!! والمخاطر يمضون المعاملات بأجور
مرتفعة، الانتخابات عشائرية لا أساس فيها للديموقراطية،
التجارة منافسة غير شريفة، يبيع أحدهم على بيعة أخيه، الأب
يحشر أبناءه وزوجاتهم في بيت واحد لتبقى المعركة على
أشدها بين السلفات من جهة، وبينهن وبين الحماية من جهة
أخرى، وإن زرع الواحد بامية، وربح، زرعوا كلهم في السنة
التالية بامية، فخسروا، وإن اشترى الواحد منهم سجادة اشتروا
سجادات، ليقال ما في حدا أحسن من حدا!! القيل والقال لا
غنى عنهما في مجالسهم بحق أو بغير حق، والمزاح عندهم قد
يتحول إلى عدا، من هنا سهل على هذه اللحى أن تقع بين
جحيمي حانا ومانا، بين حانا ومانا ضاعت لحانا. . ومانا
ومانا هما في الأصل منا، نحن صنعناهما، نحن الذين أوقعنا
رؤوسنا بين أيديهم، حطينا رؤوسنا بين الروس وقلنا يا قطاع
الروس اقطع رؤوسنا، استأسدوا أو استنسروا لا فرق .

* * *

متى يحترق هذا الجحيم؟! الجحيم من صنع أيدينا، ليس
بوسعنا أن ننتظر معجزة، ومع ذلك ننتظر، خرجنا من البلدة
معنويا أو نفسيا، قلنا إن للبلدة ربا يحميها، انتظرنا أن يحرق
الله جحيم أبرهة الحبشة وفيله، نقصد حانا ومانا. . كان الرد

كما تكونوا يولّ عليكم.. هذا هو الجحيم الذي صنعناه
بأيدينا..

عاث حانا بأعراضنا، صفقنا له، ورجواناه أن يتوسط في
حلّ مشكلاتنا.. عاث مانا في رؤوسنا، صفقنا له يوم أن
خطب خطبة وطنية حارة..

قلنا: نحن لسنا في مستوى هؤلاء الثوريين؛ إذن لنتركهم
يفعلون ويعملون، إنهم يضحون بأرواحهم من أجل الوطن، ما
يتوجب علينا هو أن ندفع لهم الجزية صاغرين!!

يا ناس يا عالم يا هو.. من نحن؟! ثلاثمئة مليون عام
ألفين ولا يهشون أو ينشون أمام عشرة ملايين يهودي!! كيف
سنصير في هذا العالم المنهار أسيدا لأنفسنا.. نحن هنا
موجودون بمآسينا!!

يا عالم يا هو.. يا بقر!! يا غجر!! يا ناس بلا عقول..
كيف تريدون أن تكونوا خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر.. قد تقولون الحق على زعمائنا: حولنا إلى كف،
والكف لا تقاوم المخز المصنوع في أميركا التي كفلت صيانتها
مدى الحياة!!

الشهداء الذين يتساقطون فوق مآذن الأقصى من لهم
غيركم؟! الجرحى الذين يتغذون بدمائكم البليدة من لهم
غيركم!! الأطفال الصرعى من لهم؟ أمهاتنا اللواتي قطعن
جدائلهن وبعثن بها إلى قطز، وقلن قبل ذلك وامعتصماه، من
لهن غيركم؟! الصغيرات الآنات توجعا والشكالى، من لهن

غيركم؟! أرض مؤتمراتكم الغاصة بحانا ومانا تستصرخ
الشعوب من لها غيركم.. فليحترق الجحيم.. . آلاف من
حانا ومانا يخنقون أنفاسنا، يحولوننا إلى تفاهات، عار، ولايا
مسخمت، سوّد الله وجوهنا ولحانا من لنا غير نحن بعد
الله؟!

تمرغت لحانا في جحيم حانا ومانا، صرنا في جحيمين،
جحيم الأعداء، وجحيم الزعماء ما بين حانا ومانا، فماذا
نحن فاعلون؟! أمانا أخ كريم، وحانا ابن أخ كريم؟..
يا عالم يا هو.. من يصبر كصبرنا.. لا صبر كصبرنا!!

على أية حال، عبر ابن عامر عن الخطوات المطلوبة
لمواجهة الألفية الثالثة في وثيقة العشر نقاط التي تجعل لحانا
إيجابية! إفريق تعجب، وآخر تمسخر، وثالث أيد، ورابع لم
يقل شيئا، وكأن الأمر لا يعنيه . فما الذي قاله ابن عامر في
البيان الذي وزعه بين الناس في أنصاف الليالي، مما أقض
مضجع حانا ومانا ومن لف لفهما هنا وهناك وهنالك؟!

أولا: يجب احترام قدرات شعبنا، وإعطائها الحق الحر
في اختيار من يمثلها في السلطة، على أن توضع مادة ممارسة
الديموقراطية الحرة ضمن المنهاج التعليمي، فيربى المواطن
تربية واعية لممارسة حقوقه إلى الحد الذي تبدأ عنده حقوق
الآخرين . وفي هذا السياق يجب تسخير وسائل الإعلام كافة
في خدمة هذه التربية الديمقراطية الحرة ذات الأطر الإنسانية،
وعلى التلفاز تحديدا أن يهشم جانب "الفيديو كلب"

المتضخم من أجل توجيه رسالة ثقافية واعية، ويمكن التفصيل في هذا الجانب من خلال تشكيل لجان ديموقراطية ثورية حرة!!

ثانيا: يجب تحويل بنية المجتمع من بنية استهلاكية إلى بنية إنتاجية، وفرض مقاطعة لبضائع أعدائنا، وتحديد البضائع الإسرائيلية والأمريكية، كما يجدر التقليل من استخدام البضائع الكمالية، لصالح البضائع الحيوية، وبناء قوة اقتصادية عربية محورها النفط الذي يمكن استخدامه سلاحا فعالا في مواجهة غطرسة الآخر وهيمنته، وخاصة الصهيوني!!

ثالثا: من المهم بناء قوة عسكرية عربية دفاعية موحدة، تكون درعا واقيا تجاه أية تهديدات تواجه الأمة، كما من حق هذه القوة أن تكون فاعلة رادعة في مواجهة أية تحركات تنقصد الإساءة إلينا، أو التحرش بنا، أو تستعمرنا!!

رابعا: إن ذراعنا الاستراتيجية تمتد في عمق البنية الإسلامية، إذ علاقتنا بالدول والجماعات الإسلامية غير العربية علاقة حميمة، تؤكد أن العرب مسلمين ومسيحيين كتلة متكاتفة لها علاقات متينة مع الإسلام أينما وجد، ومع أية دول أخرى أو جماعات ترى مشروعية حقنا المصيري في تقرير وجودنا وثقافتنا وقدراتنا!!

خامسا: نحن في قوتنا هذه قوة فاعلة داخل العولمة، ومتفاعلة تكنولوجيا واتصاليا مع العالم، بشرط أن تكون لنا حريتنا المطلقة في التفاعل، على أساس أننا قوة مؤثرة لا

ترضى بأية شروط غير مقنعة، وخاصة أن ينظر إليها على أساس أنها أمة مهمشة!!

سادسا: ليس من صالحنا توليد الصراعات الداخلية، وتعريض قدراتنا للدمار بسبب الخلافات التي يمكن أن تنشأ بين الأديان، والعلم، والأعراق، والأفكار.. وما إلى ذلك، دعونا نبين مجتمعا تترعرع فيه حرية المعتقد، وفاعلية الإنسان المنتج في جوانب الحياة كافة..

سابعا: الأرض العربية أرض لا يمكن التفریط بها، يجب اعتبارها ركيزة وجودنا، ومن الأولويات ضرورة تحرير ما اغتصب منها، على أن تكون فلسطين ذات أولوية بحكم وقوعها تحت الدنس الصهيوني، مع تكريس قوى ثورية شعبية للمقاومة المستمرة على طريقة حرب التحرير الشعبية أو المرباطة الجهادية لتحرير أرضنا أينما وجدت!!

ثامنا: معرفة الآخر ضرورية، لذلك يجب الحرص على معرفة أي آخر، مهما كانت أهميته، وتقع هذه المعرفة على عاتق مفكرينا ومبدعينا!!

تاسعا: الوحدة ضرورة لا غنى عنها، على العرب كلهم أن يتحركوا في المنطقة العربية كلها بلا قيود أو حدود، ومن حقهم أن يعيشوا في المكان الذي يرغبون به، وأن تكون الهوية: عربية، بدون مكان ولادة، أو عمر، أو جنس!!

عاشرا: يجب وضع أية مستجدات بخصوص تنفيذ هذه النقاط أو ما يستجد غيرها تحت إشراف لجنة واعية أساسها

من المفكرين والمبدعين، لتصدر بها قرارات تراعي التقدم والتحضر والفاعلية!!

* * *

قالوا: كلام شعارات سمعناه من بداية القرن إلى نهايته، يشربون "الببسي" رمز "إنقاذ إسرائيل"، ومعها "همبرغر مكدونالد" الصهيوني! ماذا نكتب عن لحانا؟! نكتب تاريخا؟! دعونا نجرب!!

من مؤتمر بال الصهيوني عام ١٨٩٧ إلى فشل التحالف بين باراك وشارون عام ٢٠٠٠ ونحن ننتقل من خازوق إلى خازوق أوسخ، ونعتقد على سبيل المثال أن وجه باراك المطلي بالغش أفضل من وجه شارون المفصوح الحاقد، علما بأن حقد باراك أعلى وتيرة من حقد شارون، وأغلب هزائمنا كانت على يد العمل حزب باراك، ومع هذا نردد أن باراك يساري، وشارون يميني.. عجيب أمرنا في آخر الزمان! بدأنا ننتظر منقذينا من بين أعدائنا الذين يذبحوننا بالسكاكين بلا رحمة، وبلا قيد أو شرط، فماذا نحن فاعلون؟!

الهزيمة نسميها نكسة، وسياسة الخطوة خطوة التي مشانا عليها كيسنجر الصهيوني نسميها انتصارا!! مفاوضات الاستسلام نسميها سلاما، ونقول "جنحوا للسلم فجنحنا".. الاستهلاك نطلق عليه حضارة وتطورا، والإنتاج عبثا وخسارة، ونقول معهم عن جهادنا تطرفا، وعن شهدائنا قتلى وأمواتا، نصف معسكراتهم فوق أراضينا بمعاهدات الدفاع المشترك، نصور تغلغلهم فينا وتجسسهم علينا تطبيعا وعولمة وتكنولوجيا

اتصالات.. صارت لحانا مماسح، وشواربنا رمز عار، وعرقنا خجلا واندحارا!!

كيف نواصل الحديث عن لحانا؟!

يا جماعة الخير، لحانا ليست بهذا السوء، نحن نصلي عادة، نصل الأرحام في الأعياد، ونبيع الكلام لأنه أسهل تجارة، نبتعد عن التمحك بالسلطة، لأن الفهم الواعي من يمشي الحيط الحيط ويقول يارب السترة!!

يا أخي والله الناس عندما تتاح لها الفرصة تهدر هدير الأبطال، ماذا بأيديهم أن يفعلوا أكثر من المظاهرات، التبرعات، التنديد والاستكارات، كلها يوم يومان ثلاثة، نندد، نستكر، ولا من شاف ولا من درى.. لا يهمننا قتل المتفضين منذ أكثر من خمسين عاما، ولا تهمننا غارات الطيران على اللاجئين، ولا يعيننا الحصار على الأطفال.. لا يعيننا.. لا يعيننا.. لا يعيننا.. هيا إلى المقبرة لقراءة الفاتحة على أرواح الشعوب، وزعمائهم!! ثم نعود لنشاهد مسلسلات التنكيل بنا!!

لا تصدقوا هذا الكلام، المؤلف سوداوي في نظرته، لا ينصفنا، كأنه يعيد أفكار الشعوبية ويحييها، كأنه من أصول عبرية، جرمانية، ساسانية، ليس من المعقول أن نكون بهذه السلبية، نحن لحانا، كما رأيت في الانتفاضة الأخيرة، كنا أبطالا، وقد رأيت كيف طلبنا بثورية في جامعات أم الدنيا أن تفتح الحدود لنجاهد، لكنهم أغلقوا أبواب الجامعات، لم يفتحوها لنخرج إلى الشوارع، فكيف تريدونهم أن يفتحوا

الحدود لنجاهد؟ لما خرجنا إلى الشوارع أمطرونا العصي، والرصاص المطاطي، وقنابل الدخان، وأثاروا الفتنة بيننا.. خرجنا، تظاهرنّا، قمنا بما يجب، حاربونا كما شاهدتم مثل حرب جنود الاحتلال للأطفال.. ثرنا في الشوارع، دمرنا السفارة رغما عنهم!! ثرنا مليون ثائر في المظاهرة، وصلت المظاهرة إلى مليونين، تبرعنا.. ألم نقم بما يجب؟! وماذا بعد؟! ماذا بأيدينا أن نفعل؟! ليس بإمكانهم أن يفتحوا الحدود، ليس بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلنا.. وكان الله في السر علينا، وكفى المؤمنين شر القتال!!

أيها الناس، يا أنتم، الفاتحة على أرواحكم إلا ما ندر.. أهذا كلام معقول يقوله هذا المؤلف عنا، أنحن قصر هذا الزمن!!؟

أيها الناس، يا أنتم، الفاتحة على أرواح ثلاثمئة مليون نسمة إلا ما ندر.. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرور أعمالنا.. اللهم انصرنا.. انصرنا.. انصرنا.. واكسر القوم الظالمين!! آمين!! وماذا بعد؟! ماذا بعد؟!

لا يجوز أن يتحول الكلام إلى خطابة، هذا كلام أدبي يجب أن يعتمد على المجازات، الصور، بلاغات الألفاظ، الدلالات العميقة، اللغة المختصرة الإيحائية!!

لنعد إلى موضوعنا السردى، لنترك هذه الخطابة التي شبع منها الناس حتى التخمة ودرجة الذبحة القلبية!!

اجتماعات كثيرة: مؤتمر القمة العربي، مؤتمر القمة الإسلامية، مؤتمر القمة العربية للنساء، قرارات سرية، مؤامرات تحاك ضدكم، تغرمون بشرب البيبسي والكوكا كولا..

توقف حانا في المؤتمر الأخير، قال: هذه القرارات لن تمر على الناس بسهولة، إن طرحت بهذا الشكل فمصيرها الموت، الأسلوب الوحيد لتطبيقها، أن تعتمد بالدم..

سأل مانا: كيف؟

ترجمت سعدة السؤال وقرصت الخبير الأمريكي الجالس بجانبها، وتمحك الخبير الإسرائيلي بقدمها!!

تمطى حانا، كأنه بعبارة "أن تعتمد بالدم" أصبح سيد الموقف كله: يجب أن نشعلها، يجب أن تكون الخسائر في طرفنا كبيرة جدا لأننا المهضومون في الحلول، وأن تكون الخسارة في طرفكم ضمن المعقول، لأنكم لن تخسروا كثيرا في هذه التسوية، يمينكم ويساركم في النهاية لا بد أن يوقع!! قال مانا: ستعيدنا بذلك إلى سياسة الخطوة خطوة!!

قال حانا: ليس المهم المصطلحات!! المهم كيف نمرر هذه الاتفاقيات!!

اشتعلت!! أصبح حانا ومانا ثورين.. العصفور الأول!!

عمد تطبيق الاتفاق بالدم.. العصفور الثاني!!

هذا المؤلف يعيدنا إلى تفسير الأشياء في ضوء نظرية المؤامرة، كأننا بلا إرادة، دمي يتلاعب بها الآخرون، لحانا بلا رؤية!! أمن المعقول أن تصدقوا ترهاته هذه!!

يا أخي نحن نقول، وأنت صدق أو لا تصدق، عدا عن ذلك الأفكار فيها أخذ ورد، لم أقل لك إن تحرك جماهيرنا العفوي ناتج عن مؤامرة! هذا التحرك منطقي وطبيعي، المؤامرة بدأت من بعث شارون إلى المسجد، قرار اللجنة الأمنية المشتركة، أشعلوها، استفزوا، عمدوا بدمائنا قراراتهم، لا بد من الوحدة الوطنية بين الليكود والعمل، التوقيع المشترك على إقامة كياننا الهزيل، أنا أتمنى أن تستمر الانتفاضة إلى أن تحقق أهدافها بتحرير الوطن كله، لكنها لا يمكن أن تستمر مخنوقة بالحصار، بلا سند، بلا معارك من الحدود، وبلا مساندة فورية معنوية ومادية وإسنادية، أتريدنا أن يضحك بعضنا على ذقون بعض، ونخسر المزيد بلا معيل؟!

يبدو أنني لا أريد لهذه الرواية أن تنشر إلا بعد أن تجزر، بدأت أدخل في دهاليز المؤامرات التي يقوم بها حانا ومانا ومن لف لفهما.. من الضروري أن تتوقف الكتابة عند الحد الذي يترك الأمر للمتلقي كي يقول في المسألة ما يشاء.. المتلقي بحمد الله أصبح واعيا أكثر من الكتاب أنفسهم، لولا تكلفة الطباعة المرتفعة الثمن - هذا الكلام ليس في الحب أو الطبخ أو المراجع الدراسية حتى ينشر على حساب دور النشر، الطامة أنه في السياسة، والناشر عادة ما يقول: يا أخي شعبنا سياسة، السياسة لا تطعم خبزا، نريد كتابة بنت عيشة، عليها رزقنا ورزق أولادنا، اتركنا من السياسة ودهاليزها، ادفع ثمن كتابك، صدقني أنا الخسران، لأنني أعرض دار النشر لسين وجيم، وأنا مش ناقصني وجع راس الله يخليك، ابعد عن

الشر وغن له، أحسن ما يغني لك على الحديد!! - لترك
بعد هذا الفصل مئة صفحة بيضاء على أقل تقدير ليكتب فيها
المتلقي روايته بخصوص نظرية المؤامرة، أي قارئ يستطيع أن
يغني على ليلاه، وكأنه يغني على ليلي الجميع!!

ربما تعيد لحانا النظر في مصيرها، قف وفكر!! من أنت!!
أمجرد رقم؟! ألا تشعر أنك بحاجة إلى أن تعيد النظر في
صياغة نفسك؟ ما الذي يزعجك؟ ما الذي تشعر أنه يرضيك؟!
هل تفكر بالهجرة إلى مكان آخر؟ ما الأسباب المباشرة في
تأزيم حياتك؟ لنكن صريحين مع أنفسنا، ما نسبة الإحباط في
حياتك؟! ألا تشعر أنك تمارس حياتك بغير رضى؟! هل تشعر
أنك مريض نفسياً؟! أتحلم بكيان عربي طوباوي؟ ما مدى
رفضك لما هو شائع في محيطك؟! قف وفكر، وابدأ في كتابة
روايتك!! ضع أوراقك بين يديك لأنني لن أترك لك هنا
مساحة أكثر من عدة أسطر.. لتكون البداية:

(7)

حانا ديك..

مانا ثور..

سعدة كبش..

ديكنا يتنمرد على الدجاجات كلها، يضرب هذه، يرفص هذه، يبصق في وجه هذه، يلعن هذه، يطلب من هذه أن تحضر له وجبة الأكل صاغرة، يأمر هذه أن تنزاح عن وجهه لأنه لا يريد أن يراها، وبعد أن يكبس الدجاجة "يزتها" بقدمه مترين، وما أن يجد أمامه دجاجة محتجة حتى يصب عليها جام غضبه.. وكثيرا ما يسجن الدجاجات المعارضات له في الخم بلا أكل أو شرب إلا ما يبقى على حياتها، يثير الفتن بين الدجاجات إلى حد لم تعد دجاجة تثق بأختها.. يقطر التعليم على الدجاجات تقطيرا، لا تبث إمبراطوريته سوى تاريخه المجيد في بناء إمبراطورية الدجاج، وفي أوقات الأزمات يذبح أية دجاجة، يصلبها عشرة أيام على جدار

المزرعة لتكون عبرة لمن لا يعتبر.. يجلس في قصره بلا شغلة أو مشغلة، دجاجات تطبخ، دجاجات تنظف، دجاجات تدلك جسده، دجاجات ترقص له.. دجاجات تتعري من ريشها لتصنع له الفراش الوثير، دجاجات تברי مناقيرها لتدافع عنه لحظة نومه أو غفلته، دجاجات تصنع له الحلوى، دجاجات تجهز له الأرجيلة، دجاجات ترطب له الجو بأجنحتها، دجاجات تقص عليه حكايات الإسكندر، وجلجامش، ونابليون، وفرعون، والنمرود، وهولاكو، وأبرهة الحبشة، والشاه، وبيجن، وباراك.. دجاجات تصنع له من ريشها فروا للشتاء، دجاجات تفكر له بالطرق التي تجعله قادرا دوما على حكم الدجاجات، دجاجات تصنع أنها ديوك، لتجر من يزعمون أنهم ديوك إلى أقيية تحت الأرض، دجاجات تفرخ له دجاجات، دجاجات تزين له دجاجات، دجاجات تثقف له دجاجات، دجاجات تطبخ له دجاجات.. صغار الصيصان تربي لتصير دجاجات، حتى الديوك عليها أن تصير دجاجات، أي ديك صغير يتنمرد يعتمد ديكننا الكبير أن يناديه دوما: يا دجاجة تعال، يادجاجة روح!! وفي النهاية يكسر أنفه، يجعله ينسى أن أمه ولدته ديكا، يقتنع أن الديك الوحيد في بيتنا هو ديكننا الكبير!!

لم أعد أستغرب تلك العلاقة التي نشأت بين ديكننا الكبير وديك جيراننا الأكبر، ديكننا كأنه يغدو دجاجة أمام ديك الجيران، بل سمعت في إحدى مراقباتي للوضع المهزلة صوت

حانا ديك.. مانا ثور.. سعدة كبش..

ديك الجيران وهو يقول لديكنا: ألم أقل لك يا دجاجة أن الأوضاع عندك ما زالت غير آمنة، كأنني سمعت دجاجاتك يتحدثن عن حرية، ديموقراطية، مجلس شعب، اتحادات نسوية، تعددية الحكم.. بهذه الأفعال سيحولنك إلى دجاجة.. دجاجاتك لا يصلحن إلا بالدكتاتورية..

تململ ديكنا، كأنه أراد أن يعارض، قال مختصرا: الدجاجات عندي يتحدثن عن الحرية المتضخمة عند دجاجاتك.. رد ديك جيراننا غاضبا: افهم يا دجاجة، دجاجاتي بنات ناس، أما دجاجاتك فهن بنات غجر!! مشى بعد ذلك ديك جيراننا على بيض دجاجاتنا.. صفقت له دجاجاتنا.. حنى ديكنا الكبير له ظهره حتى لامس منقاره رجليه.. ولما غادر محفوقا بالموسيقى والتصفيق وانحناءات الظهر رفع ديكنا منقاره إلى أن كاد يلمس ظهره، تمطى، قال: أيتها الدجاجات، لا شك أننا فرطنا في أشياء كثيرة، نحن في مواجهة مع أعدائنا، لذلك ليس من المعقول أن تتمتعن بهذا الأمن والرخاء وعدونا يتربص بنا من الداخل ومن الخارج، عدو الداخل هو الأخطر، لأنه يحمل أفكارا تدميرية، وأفكاره أحيانا كلمة حق يراد بها الباطل، فما الحاجة إلى اتحادات تفتت الدجاج إلى جماعات متصارعة، وما الحاجة إلى مجلس دجاج يحتقر فيه الصغير الكبير، ويظلم فيه الكبير الصغير!! إنني من موقع المسؤولية التي حملتها بأمانة لن يقدر أحد على حملها، لأنها أمانة تكليف لا تشريف، أعلن أمامكن أننا بحاجة إلى الأعراف والطوارئ والضرب بيد من حديد على

هؤلاء الأعداء المندسين بيننا، يريدوننا أن نترك قيمنا وأخلاقنا
لنتعلق بشعارات الخراب والتآكل، تحت أسماء الحرية
والديموقراطية والتعددية، يريدون تعريتنا باسم الحرية، إثارة
العنصرية العرقية باسم الديموقراطية، نهب قدراتنا وخيراتنا
باسم التعددية، باسمكن، وباسم هذا الوطن الدجاجة لا
الديكي، الوطن الدجاجة، وأنا حريص على أن أقول
الدجاجة، لأنه وطنكن قبل أن يكون وطني، أعلن من هذا
الموقع المسؤول الحريص القومي التاريخي الإنساني الحضاري
أنني قررت ما هو آت: لا شيء يعلو فوق مصالح دجاجنا،
من هنا قررت أن يتولى ابني الأكبر "حانا ديك" قيادة عمليات
الطوارئ، ويتولى ابني الأوسط "مانا ديك" قيادة الأمن
الداخلي، ويتولى ابني الأصغر "لحانا ديك" قيادة الحرس
الخاص، وتتولى بنتنا الوحيدة "سعدة ديك" قيادة شؤون
المرأة!!

امتلأت فضاءات الوطن الدجاجة بتصفيق حار لديكنا
الكبير!! رددوا أنت زعيمنا إلى الأبد!!

هل أحدثكم عن: كبشنا الكبير أو تيسنا الكبير أو حمارنا
الكبير أو بغلنا الكبير أو كلبنا الكبير أو ثورنا الكبير أو جملنا
الكبير أو قطنا الكبير، أو، أو، أو.. من المؤكد أنكم
سترفضون، لأنني سأكرر ما قلته عن ديكننا الكبير، فمثلا
لنجرب أن نتحدث عن ثورنا الكبير!!
ثورنا يتنمرد على البقرات كلها، يضرب هذه، يرفض هذه،

يبصق في وجه هذه، يلعن هذه، يطلب من هذه أن تحضر له وجبة الأكل صاغرة، يأمر هذه أن تنزاح عن وجهه لأنه لا يريد أن يراها، وبعد أن يكبس البقرة "يزتها" بقدمه مترين، وما أن يجد أمامه بقرة محتجة حتى يصب عليها جام غضبه.. وكثيرا ما يسجن البقرات المعارضات له في الحظيرة بلا أكل أو شرب إلا ما يبقى على حياتها، يثير الفتن بين البقرات إلى حد لم تعد بقرة تثق بأختها.. يقطر التعليم على البقرات تقطيرا، لا تبث إمبراطوريته سوى تاريخه المجيد في بناء إمبراطورية البقر، وفي أوقات الأزمات يذبح أية بقرة، يصلبها عشرة أيام على جدار المزرعة لتكون عبرة لمن لا يعتبر.. يجلس في قصره بلا شغلة أو مشغلة، بقرات تطبخ، بقرات تنظف، بقرات تدلك جسده، بقرات ترقص له.. بقرات تتعري من وبرها لتصنع له الفراش الوثير، بقرات تברי قرونها لتدافع عنه لحظة نومه أو غفلته، بقرات تصنع له الحلوى، بقرات تجهز له الأرجيلة، بقرات ترطب له الجو بأذيالها، بقرات تقص عليه حكايات الإسكندر، وجلجامش، ونابليون، وفرعون، والنمرود، وهولاكو، وأبرهة الحبشة، والشاه، وبيجن، وباراك.. بقرات تصنع له من وبرها فروا للشتاء، بقرات تفكر له بالطرق التي تجعله قادرا دوما على حكم البقرات، بقرات تصنع أنها ثيران، لتجر من يزعمون أنهم ثيران إلى أقبية تحت الأرض، بقرات تفرخ له بقرات، بقرات تزين له بقرات، بقرات تثقف له بقرات، بقرات تطبخ له بقرات.. صغار البقر تربي لتصير بقرات، حتى الثيران عليها أن

تصير بقرات، أي ثور صغير يتمرد يعتمد ثورنا الكبير أن يناديه دوما: يا بقرة تعال، يا بقرة روح!! وفي النهاية يكسر أنفه، يجعله ينسى أن أمه ولدته ثورا، يقتنع أن الثور الوحيد في بيتنا هو ثورنا الكبير!!

لم أعد أستغرب تلك العلاقة التي نشأت بين ثورنا الكبير وثور جيراننا الأكبر، فثورنا كأنه يغدو بقرة أمام ثور الجيران، بل سمعت في إحدى مراقباتي للوضع المهزلة صوت ثور الجيران وهو يقول لثورنا: ألم أقل لك يا بقرة أن الأوضاع عندك ما زالت غير آمنة، كأنني سمعت بقرك يتحدث عن حرية، ديموقراطية، مجلس شعب، اتحادات نسوية، تعددية الحكم.. بهذه الأفعال سيحولنك إلى بقرة.. بقراتك لا يصلحن إلا بالدكتاتورية..

تململ ثورنا، كأنه أراد أن يعارض، قال مختصرا: البقرات عندي يتحدث عن الحرية المتضخمة عند بقراتك.. رد ثور جيراننا غاضبا: افهم يا بقرة، بقراتي بنات ناس، أما بقراتك فهن بنات غجر!! مشى بعد ذلك ثور جيراننا على رموش بقراتنا.. صفقت له بقراتنا.. حتى ثورنا الكبير له ظهره حتى لامس أنفه رجليه.. ولما غادر محفوبا بالموسيقى والتصفيق وانحناءات الظهور رفع ثورنا رأسه إلى أن كاد يلمس ظهره، تمطى، قال: أيتها البقرات، لا شك أننا فرطنا في أشياء كثيرة، نحن في مواجهة مع أعدائنا، لذلك ليس من المعقول أن تتمتع بهذا الأمن والرخاء وعدونا يتربص بنا من الداخل ومن الخارج، عدو الداخل هو الأخطر، لأنه يحمل

حانا ديك.. مانا ثور.. سعدة كبش..

أفكارا تدميرية، أفكاره أحيانا كلمة حق يراد بها الباطل، فما الحاجة إلى اتحادات تفتت البقر إلى جماعات متصارعة، وما الحاجة إلى مجلس بقر يحتقر فيه الصغير الكبير، ويظلم فيه الكبير الصغير!! إنني من موقع المسؤولية التي حملتها بأمانة لن يقدر أحد على حملها، لأنها أمانة تكليف لا تشريف، أعلن أمامكم أننا بحاجة إلى الأعراف والطواري والضرب بيد من حديد على هؤلاء الأعداء المندسين بيننا، يريدوننا أن نترك قيمنا وأخلاقنا لتتعلق بشعارات الخراب والتآكل، تحت أسماء الحرية والديموقراطية والتعددية، يريدون تعريتنا باسم الحرية، إثارة العنصرية العرقية باسم الديمقراطية، نهب قدراتنا وخيراتنا باسم التعددية، باسمكم، وباسم هذا الوطن البقري لا الثوري، الوطن البقري، وأنا حريص على أن أقول البقري، لأنه وطنكم قبل أن يكون وطني، أعلن من هذا الموقع المسؤول الحريص القومي التاريخي الإنساني الحضاري أنني قررت ما هو آت: لا شيء يعلو فوق مصالح بقرنا، من هنا قررت أن يتولى ابني الأكبر "حانا ثور" قيادة عمليات الطواري، ويتولى ابني الأوسط "مانا ثور" قيادة الأمن الداخلي، ويتولى ابني الأصغر "لحانا ثور" قيادة الحرس الخاص، وتتولى بنتنا الوحيدة "سعدة ثور" قيادة شؤون المرأة!!

امتلات فضاءات الوطن البقري بتصفيق حار لثورنا الكبير!! رددوا أنت زعيمنا إلى الأبد!!

* * *

هل تريدون أيضا سماع المزيد من القصص، لا أظن أنكم تفضلون هذا الأسلوب المكرر من الكتابة، إنما القدر يركب على ثلاثة، وحتى أقطع أي شك يراودكم بوجود فوارق، فإنني سأحدثكم عن كبشنا الكبير:

كبشنا يتمرد على النعجات كلها، ينطح هذه، يرفض هذه، يبصق في وجه هذه، يلعن هذه، يطلب من هذه أن تحضر له وجبة الأكل صاغرة، يأمر هذه أن تنزاح عن وجهه لأنه لا يريد أن يراها، وبعد أن يكبس النعجة "يزتها" بقدمه مترين، وما أن يجد أمامه نعجة محتجة حتى يصب عليها جام غضبه.. وكثيرا ما يسجن النعجات المعارضات له في الحظيرة بلا أكل أو شرب إلا ما يبقى على حياتها، يثير الفتن بين النعجات إلى حد لم تعد نعجة تثق بأختها.. يقطر التعليم على النعجات تقطيرا، لا تبث إمبراطوريته سوى تاريخه المجيد في بناء إمبراطورية النعاج، وفي أوقات الأزمات يذبح أية نعجة، يصلبها عشرة أيام على جدار المزرعة لتكون عبرة لمن لا يعتبر.. يجلس في قصره بلا شغلة أو مشغلة، نعجات تطبخ، نعجات تنظف، نعجات تدلك جسده، نعجات ترقص له.. نعجات تتعري من صوفها لتصنع له الفراش الوثير، نعجات تברי قرونها لتدافع عنه لحظة نومه أو غفلته، نعجات تصنع له الحلوى، نعجات تجهز له الأرجيلة، نعجات ترطب له الجو بآذانها، نعجات تقص عليه حكايات الإسكندر، وجلجامش، ونابليون، وفرعون، والنمرود، وهولاكو، وأبرهة الحبشة، والشاه، وبيجن، وباراك.. نعجات تصنع له من صوفها فروا

حانا ديك.. مانا ثور.. سعدة كبش..

للشئاء، نعجات تفكر له بالطرق التي تجعله قادرا دوما على حكم النعجات، نعجات تتصنع أنها كباش، لتجر من يزعمون أنهم كباش إلى أقبية تحت الأرض، نعجات تفرخ له نعجات، نعجات تزين له نعجات، نعجات تثقف له نعجات، نعجات تطبخ له نعجات.. صغار النعجات تربي لتصير نعجات، حتى الكباش عليها أن تصير نعجات، أي كبش صغير يتنمرد يعتمد كيشنا الكبير أن يناديه دوما: يا نعجة تعال، يا نعجة روح!! وفي النهاية يكسر أنفه، يجعله ينسى أن أمه ولدته كبشا، يقتنع أن الكبش الوحيد في بيتنا هو كيشنا الكبير!!

لم أعد أستغرب تلك العلاقة التي نشأت بين كيشنا الكبير وكبش جيراننا الأكبر، كيشنا كأنه يغدو نعجة أمام كبش الجيران، بل سمعت في إحدى مراقباتي للوضع المهزلة صوت كبش الجيران وهو يقول لكيشنا: ألم أقل لك يا نعجة أن الأوضاع عندك ما زالت غير آمنة، كأنني سمعت نعاجك يتحدثن عن حرية، ديموقراطية، مجلس شعب، اتحادات نسوية، تعددية الحكم.. بهذه الأفعال سيحولنك إلى نعجة.. نعجاتك لا يصلحن إلا بالدكتاتورية..

تململ كيشنا، كأنه أراد أن يعارض، قال مختصرا: النعجات عندي يتحدثن عن الحرية المتضخمة عند نعجاتك.. رد كبش جيراننا غاضبا: افهم يا نعجة، نعجاتي بنات ناس، أما نعجاتك فهن بنات غجر!! مشى بعد ذلك كبش جيراننا على أنوف نعجاتنا.. صفقت له نعجاتنا.. حنى كيشنا الكبير له ظهره حتى لامس أنفه رجليه.. ولما غادر محفوفاً

بالموسيقى والتصفيق وانحناءات الظهر رفع كبشنا رأسه إلى أن كاد يلمس ظهره، تمطى، قال: أيتها النعجات، لا شك أننا فرطنا في أشياء كثيرة، نحن في مواجهة مع أعدائنا، لذلك ليس من المعقول أن تتمتعن بهذا الأمن والرخاء وعدونا يتربص بنا من الداخل ومن الخارج، عدو الداخل هو الأخطر، لأنه يحمل أفكارا تدميرية، أفكاره أحيانا كلمة حق يراد بها الباطل، فما الحاجة إلى اتحادات تفتت النعاج إلى جماعات متصارعة، وما الحاجة إلى مجلس نعاج يحتقر فيه الصغير الكبير، ويظلم فيه الكبير الصغير!! إنني من موقع المسؤولية التي حملتها بأمانة لن يقدر أحد على حملها، لأنها أمانة تكليف لا تشريف، أعلن أمامكم أننا بحاجة إلى الأعراف والطوارئ والضرب بيد من حديد على هؤلاء الأعداء المندسين بيننا، يريدوننا أن نترك قيمنا وأخلاقنا لنتعلق بشعارات الخراب والتآكل، تحت أسماء الحرية والديموقراطية والتعددية، يريدون تعريتنا باسم الحرية، إثارة العنصرية العرقية باسم الديموقراطية، نهب قدراتنا وخيراتنا باسم التعددية، باسمكم، وباسم هذا الوطن النعاجي لا الكبشي، الوطن النعاجي، وأنا حريص على أن أقول النعاجي، لأنه وطنكن قبل أن يكون وطني، أعلن من هذا الموقع المسؤول الحريص القومي التاريخي الإنساني الحضاري أنني قررت ما هو آت: لا شيء يعلو فوق مصالح نعاجنا، من هنا قررت أن يتولى ابني الأكبر "حانا كبش" قيادة عمليات الطوارئ، ويتولى ابني الأوسط "مانا كبش" قيادة الأمن الداخلي، ويتولى ابني

حانا ديك.. مانا ثور.. سعدة كبش..

الأصغر " لحنانا كبش " قيادة الحرس الخاص ، وتتولى بنتنا
الوحيدة "سعدة كبش "قيادة شؤون المرأة!!
امتلات فضاءات الوطن النعجي بتصفيق حار لكبشنا
الكبير!!رددوا أنت زعيمنا إلى الأبد!!

* * *

ما فعلته في اللوحات الثلاث السابقة، مع ديكنا الكبير،
ثورنا الكبير، كبشنا الكبير، مجرد تغييرات بسيطة في بعض
الألفاظ، لأن السياق نفسه لما يقارب خمسة وعشرين كبرا في
مزارع بيتنا، الكبار في بيتنا لهم الصفات نفسها عندما يتمردون
في حاشيات بيتنا، لكنهم عندما يتواجهون مع الأكبر فيما
حولنا من جيران تغدو تصرفاتهم صغارا مضطهدين،
كدجاجاتنا، وبقرنا، ونعجاتنا. . . ويدعون أنهم مستقلون،
بهذا التصور الجحيمي أصبحت حالنا متردية بين حانا ومانا
وسعدة. . ضاعت لحنانا بسذاجاتها وبلادتها وتلاشي أفكارها
المستقلة الثائرة!!

(8)

ابن عامر

ترعرع ابن عامر في البلدة بعد أن شربت رابعة كأس الموت بدلا عنه . شيء من الجنون بدأ يسكن مفاصلة، ينتظر اللحظة التي سينتقم فيها من قاتليها، لم يترك وسيلة إلا وجربها، بدا بين الصغار كبيرا، وبين الكبار أكبر من سنه . زاد عطفه على الضعفاء، خاصة من جن منهم، كأنه بذلك يخلص في عهده لرابعة كما أخلصت له عندما قدمت نفسها لبنادقهم . انتظر اللحظة التي سينتقم فيها انتقاما يروي غليله على أحرّ من الجمر، لحظة أن يقتل عشرة أوباش دية لشعرها، سيقدر بعد ذلك فدية لكل جزء صغير من جسدها، يحصد رؤوسهم القذرة، هؤلاء القردة دبّوا إلينا كدبيب النمل من كل حذب وصوب، لو وصلوا إلى خمسين مليوناً - لن يصلوا إلى هذا العدد لو عاشوا مليار سنة، فكيف بسنوات معدودة - سيبقون حشرات بشرية تتحصن بآلاف القطع الحديدية عندما تواجه حجرنا الصلد الراقص شوقاً بأيدي

الأطفال . يكبون صليات الرصاص كبّا، من المنتصر في النهاية، حجرنا أم وجودهم الهش!!

الجبناء يشعرون أن الأرض تهرب من تحت أرجلهم النجسة لأنها تكرههم، لا تعترف بهم، غرباء عابرون في كلام عابر، الأرض أرضنا، تلتصق بنا عشقا، ترتوي بدمائنا الحرة لتعيش، ولتردد حجارتها: نحن لنا، الأرض لنا، فما لهؤلاء الحالمين بسلام الأمريكان ما زالوا يظنون أنهم باقون، ليخسئوا مع أحلامهم التي سيعثرها الحجر إلى مالا نهاية..

* * *

أحب ابن عامر دارا، الصلة عميقة بينها وبين رابعة كما أيقن، كلتاهما توحيان له بعلاقة عميقة مع الأرض . ترعرعت دارا مثله بين أشجار الزيتون فوق التلال الشامخة، هذه الأشجار الخضراء على طول الزمن تحيط بالبلدة كإكليل العرس من كل الجهات، بعضها ولد في عهد أجدادنا الكنعانيين وما زال يصب الزيت . بعضه الآخر زرعه والد دارا المزارع البسيط الذي عمل بزراعة الزيتون منذ نعومة أظفاره في بستانه وبساتين البلدة كلها، الناس يدركون أن الشجر الذي يزرعه والدها هو الشجر المبارك، لا تموت شجرة مما يزرع . يحفر الحفرة أولا، يرويها بالماء، بعد يومين يغرس شجرة الزيتون الصغيرة، يهيل عليها التراب كأنها عروس تزف في لحظة زراعتها . يتحسس ساقها الناعم كأنه يمتن ساق طفلته دارا بزيت الزيتون، يدبك بيده الحنونة على التراب ليعطي الزيتون حميمية العلاقة المتكلفة بين الجذر والتراب، كأنه يدفعها بحركة يده

الخفيفة، أو بحركة رجله المعراة من الحذاء، " لا تجوز زراعة الزيتون وفي أرجلكم أحذية "، هذا ما كان يقوله لي والد دارا عندما كنا صغيرين نلعب معا، خاصة عندما يزرع الزيتون بأرضنا ذات التراب الأحمر القاني كلون الدم، برائحة مسك دم الشهداء!! هذه الأرض ارتوت بدمائنا التي جرت دفاعا عن ترابها المحاصر من أمواج الغزاة منذ آلاف السنين، ألا ترون لونها، إنه لون الدم!! أينما نذهب تكون الأرض كلون الدم.. دم الشهداء يعجن حبيبات التراب الهشة كأنها حلوى "قلية القمح" مخلوطة بالشاي الأحمر!!

ما الذي تريد أن تقوله لي دارا، ثم تمتنع؟! مرات عديدة قالت لي: سأقول لك سرا، فاحذر أن تبوح به لأحد!! أوكد لها أنني سأحتضن سرها حتى الموت، سأضعه في لفافة قلبي ثم ألقي به في بئر قلبية عميقة بلا قرار.. لكنها تمتنع في اللحظة الأخيرة، تصر على احتفاظها بالسرا بحجة أن أباه حذرها من إشاعته، لأنها لو أشاعته ستدمر حياتهم. أخبرها أبوها أيضا أن السر إن تجاوز الاثنين شاع وفاع، وحق العقاب وخيما!!

ترك ابن عامر دارا مع سرها، سافر للدراسة في الدولة المجاورة..

صرنا نسترق الذكريات بعد أن كبرنا لأننا أصبحنا بالغين!! كيف تغدو دارا بدوني.. سنة كاملة أنتظر بعدها اللقاء على أحر من الجمر!!

عندما عدت جن جنوني لما علمت أنها تزوجت.. لم

تتجاوز السابعة عشرة، تزوجت.. السر الذي بيننا!! العهد الذي بيننا!! الذكريات التي بيننا!! لماذا تزوجت "دارا" بهذه السهولة؟! من تزوجت؟! اللعنة!! كيف أجبرت على أن تزوج ابن المختار؟! وأي ابن؟! أبهذه السهولة!! هل يتعلق الأمر بسر ما!! أخوتها الصغار!!!! أمها!! أمن المعقول أن يوافقوا على ابن المختار الذي يرى بعين واحدة!! آخرتها أعور يا دارا!! هذا غير معقول!! ليس بإمكانني أن أراها بعد هذه النكبة!! عهد طفولي كان بيننا: أن تنتظرنني لحين التخرج!! ليس بإمكانها أن تكمل دراستها!! المصاريف كثيرة.. إكمال تعليم البنت في بلدتنا شبه معقد لأنه محرم.. "آخرتها للزواج والبيت بلا تعليم وبلا زفت".. هكذا يردد آباء البنات وأمهاتهن!!

ما السر الذي كانت تريد إخباري به؟!.. هل للسر علاقة بزواجها المفروض عليها بكل تأكيد؟! ابن المختار الأعور كان أحد طلاب صفي، لكنه كان على الهامش، مسكين لا يهش ولا ينش، لا يفهم الخمسة من الطمسة.. ترك المدرسة بعد أن رسب في الصف السادس الذي رسب فيه ثلاث مرات.. ومع ذلك تزوج دارا المسكينة!! ما الذي تفعله الآن ببيته!! لن يكون هو المرشح للمخترة بعد أبيه بسبب عينه العوراء.. بحثت عن صلة قريبي بين دارا وابن المختار الأعور.. لم أجد أية صلة.. الصلة الوحيدة هي أن حانا التنت استغل ابن المختار، أظهر له صداقة مزيفة لا أعرف ما طبيعتها، وبواسطة حانا امتدت العلاقة بين الأعور ودارا،

علاقة غريبة. مشت دارا أحيانا مع دنيا بنت صاحب الكرم الذي تعمل فيه أم حانا ومانا، كان مانا يحب دنيا، يعرف أنه قد يلمس نجوم السماء الأقرب له من أن يلمس شعرة من شعرها الأملس.. وابن المختار الأعور من أين له فرصة أن يحلم بشعرة من شعر دارا!! كيف تزوجها؟! خطة جهنمية!! أشغلني أمر الخيانة أو المؤامرة كثيرا، كيف حدث هذا الزواج المرعب؟! ما الذي فعله حانا بالتحديد بعد سفري ليوقع بدارا في شباكها العنكبوتي فيدفعها إلى أن تتزوج ابن المختار الأعور؟! سؤال حيرني!! حانا يحقد علي!! يشعر أنني الشخص الوحيد الذي لا يمكن أن يلعب معه لعبة القط والفار!! يعرف أنني رهنت نفسي للانتقام يوما ما لمقتل رابعة التي ماتت بدلا عني!! كيف يستطيع الوصول إلى ساحتي؟ فكر كثيرا، وجد الفرصة سانحة بعد سفري، خدع والد دارا، أو أجبره على أن يزوجه لابن المختار، ربما قال لوالدها إنه لا يريد أن يتزوجها حتى لا يحط من قيمتها، لذلك اختار لها ابن المختار، ربما اقتنع والدها أن نسب المختار المرابي ما بعده نسب، الفرصة الوحيدة لترتفع قيمته بين ناس البلدة!! أهذا ما حدث فعلا!!

أسير محتارا بحثا عن مواقع الذكريات.. جاءني أخو دارا الصغير، رمى قربي رسالة، كأنه سلم عليّ، بعد فترة قمت من مكاني، تناولت الرسالة من غير أن أثير اشتباه أحد، وضعتها في جيبتي، سرت مسرعا إلى غرفتي.. فتحتها، لم أر في مقدمتها أنها موجهة إليّ، نظرت إلى نهايتها، لم يذكر أي اسم.. تأملت في الخط، كأنه خط دارا مع محاولة لتشويهه،

خطها أجمل من خطي، لا مجال للمقارنة بين الخطين، هل تحاول أن تخفي الخط فيما لو اكتشفت الرسالة مثلاً!!

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أعرف من أين أبدأ!! بعد أن سافرت حدثت الكارثة، ساقطني دجاجة منتوفة الريش إلى زوج لم أفكر في أي يوم من الأيام أن أستلقي على فراشه، أو بالأحرى على نعشه، لكنها خدعة جعلت والذي يشتلني من بين أحلامي ليرميني في ظلام الصحراء الشاسعة، لتغدو حياتي جحيماً.. مرات كثيرة فكرت بالانتحار.. أو أنحره؛ أقصد ما يسمونه زوجي!! أو أنحر السبب وراء مأساتي.. أعني الكلب حانا!! المجرم العميل الذي يصول ويجول؛ خرب البلدة، جعلها مرعى للذئاب..

المهم أن سفرك أتاح له الفرصة كي ينتقم.. بحث عن الوسيلة فلم يجد غيري.. لا أعرف كيف عرف السر الذي حاولت أن أحدثك عنه.. رأيت مع أبي ليلة يتحدثان بصوت مهموس، يتحدث، وأبي يطرق.. هيمن الصمت على أبي يومين، جاء بعدهما حانا، تحدثا وقت الظهيرة تحت زيتونة منزوية لوقت قصير.. في اليوم التالي قالت لي أمي: سيأتي جماعة المختار بعد صلاة العصر ليطلبوا إيدك لابنه الكبير، أبوك وافق!! كاد الموت يخطف أنفاسي.. صرخت.. جنت.. أنا لن أتزوج الأعور ولو ذبحتموني، الذبح أحسن لي من الزواج، وإن أجبرتموني على الزواج سأهج من البيت

في نص الليل، وأخلي الضبا ع تأكلني، أأملك العار ليوم القيامة!! هأمت أمي على فمي: أغلقته بالقوة، لأول مرة أرى والدي الأنون يتأول إلى وأش كاسر، لم أفهم ما قاله سمعت بعضه: " ولك إنت بأك تدمري العيلة برفضك!! لازم تتزوجه!! لازم تتزوجه!!" لا أعرف كيف تآمت، شعرت أن أنا الكلب لعب لعبته، ورط والدي في مصيبة ما!! أكيد مصيبة كبيرة . أعلمه في الزيارة الأولى المصيبة ووضع شروطه!! عاد بعد يومين ليعرف الرد!! وافق أبي!! ما هي المصيبة؟! قررت أن أعرفها. . انقبض قلبي لما شككت أنها قد تكون ذات علاقة بالسر الذي رأيت بين يدي أبي!! أردت أن أقوله لك لتأخذه وتنتقم لرابعة، خفت، ليتني أخبرتك!! لما رأيتك تمنى لو كان عندك بارودة تطأ بها الكلاب، تفت لكتمان السر، كيف أعرف أين توجد البارودة، ولا أخبرك عن مكانها!! هل كان بإمكانك أن تطلق منها النار!! قال لي والدي: إنها بارودة ألمانية قوية حارب بها الإنجليز، واليهود أثناء اجتياأهم لبلدنا، أخفاها، أخرجها في الشهر مرة، ينظفها، ثم يعيدها . لا أعرف إن استعملها أو لم يستعملها مؤأرا . لو عرف اليهود بأمرها سيأكمون على والدي بالسأ مدى الحياة، سيأمون بيتنا، ستأرد، أأرني أبي من كأف السر أملته في أأأائي بلا أمل في الولادة!!

يا للكارثة!! يبدو ما أأأ أأيا. . عرف أنا السر، هأ والدي، أنا الضأية، كيف هأهه؟! قررت أن أعرف المؤامرة من والدي!! أأبت صباح اليوم التالي الذي أأأبت فيه لأبن

المختار إلى المكان الذي دفن فيه والدي البارودة.. حفرت..
 حفرت.. لم أجد شيئاً.. تعبت من الحفر توقفت.. رفعت
 بصري إلى السماء.. كان أبي يقف فوق رأسي، عيونه
 تدمع.. نظر إلي بحزن عميق للحظات كما تخيلته.. هجم
 علي يقبلني.. أتصدق أنه هجم يقبل قدمي، كنت متبلدة
 الأحاسيس تجاهه، لكنني لما رأيته يقبل قدمي.. نفرت دموعي
 كنهرين جاريتين، هجمت على قدميه أقبلهما.. منشان الله يابا
 ما تزوجني للأعور، منشان الله، منشان الله.. عفرت وجهي
 بالتراب.. قلت له أين وضعت البارودة لأقتل نفسي، أريد أن
 أطخ نفسي أهون من أن أتزوج الأعور صاحب حانا الكلب..
 وين البارودة يابا؟ وين خبيتها!! ليش غيرت مكانها؟!!
 ضمني إليه.. أهذي.. سمعته يسب البارودة والذي جابها..
 خربت البارودة بيتي!! الله يكسر جاهك يا حانا.. إيش بيدي
 أعمل.. يا تزوجي الأعور يا يخرب بيتنا!!
 أدركت أن المؤامرة أكبر مني ومن أبي المسكين..
 شربت دموعي، قلت له: طيب قل لي الحقيقة يا با وأنا
 بساعدك!!

- إيش أقول؟! انخرب بيتنا بسبب البارودة!!

- كيف!!

- يا بنتي، لا أعرف كيف عرف حانا أمر البارودة!!

- وينها؟!

- أخذها من مخباها، جاءني قبل أسبوع مدعيا أن البارودة
 مع ابن المختار الذي قد يسلمها إلى "أبو نعيم" إن لم أوافق

على خطبتك له، أنا متأكد أن الذي أخذها حانا، وأن ابن المختار لعبة في إيدته، لكن إيش أسوي!!
- طيب خليها له، لا نريدها، وأنكر أنها بارودتك..
- بعد هالعمر أنكر! حتى لو أنكرت فالسجن مدى الحياة، وهدم البيت، وتشريدكم!!
- أنا كنت الثمن!!

- هذا الذي حصل، أنت حرة، يا خراب البيت، يا الموافقة!! لو كان الخطر عليّ وحدي، سلمت حالي واللي يكون يكون!! لكن المشكلة أنت، أخوتك الصغار..
لم يكن أمامي بديل سوى الاستكانة.. تزوجت الأعور الشخشيخة في إيد حانا، لا أريدك أن تعطف علي!! أريدك أن تنتقم من حانا الكلب.. خرب البلدة، هتك العرض.. أنا هتك عرضي على سنة الله ورسوله.. غيري هتك عرضهن على سنة الشيطان!!".

* * *

ماذا بإمكانني أن أفعل تجاه هذه الكارثة التي أوجعتني أكثر مما أوجعتني موت رابعة؟! كيف أبدأ؟! حتى لو قتلت حانا فهل تنتهي المشكلة؟! قد يخرج مئة حانا غيره!! أبو نعيم يلد الحانات!! بعد أسبوعين سأسافر.. أية حركة تصدر مني تجاه حانا في الوقت الراهن قد تجعلني ضحية من ضحاياه!! لماذا غدوت بهذه السلبية؟! هل بإمكانني أن أنتصر على بؤر الوسخ كلها!!

البلدة يا عالم بعد أن تفسى فيها الاحتلال امتلأت

بالمصائب، الناس يشك بعضهم ببعض!! التنظيمات متصارعة!! الاختلافات تتعمق!! العشائرية تستشري!! المصالح الذاتية أهم من كل الوطن!! ماذا نفعل!! أمن المعقول أن نتوقف على أرجلنا ونحن هكذا!! لا بد من انتفاضة شعبية عارمة!! الوضع خارج البلدة أضيق من عنق الزجاجة، وهنا أكثر ضيقاً، كيف نبدأ؟! كيف نغير ذواتنا؟! ليست المسألة حانا!! أو أبو نعيم! أو سعدة!! أو مانا!! أو غيرهم!! المسألة الأساسية لحانا، لماذا هذا الضياع الكبير!! لا بد من ثورة شعبية تعم، طويلة الأمد!!

سنوات الترهل تمر كلسع أعقاب السجائر على أجساد المعتقلين في زنازين الصهيونية.. سنوات كثيفة قارصة البرد أو صاهدة الحرارة.. الموت فيها خريف أهوج يميت المشاعر.. الأرض تجف.. الدموع تجف.. الأشجار تذبل.. الأعراس بلا أفراح أو أفراحها مزورة.. كيف نبدأ من هذا الجحيم فنزرع باقات الورد التي نسقيها من دمائنا؟! لم تعد دارا لي لأن الضباع افترستها، صارت فريسة للضباع من غير افتراس.. والد دارا ينكسر عندما أسلم عليه، كأنه لا يريد أن أنكش جرحه الغائر لأزرع زيتونة دارا.. كأن قلبه كله مزروع بزيتون دارا الضحية!! دارا وليمة افترستها طيور الرخ التنتة الرائحة!! أه على جرح دارا!! زوج الأعور الشخشيخة في يد حانا!!

يا سنين الرعب الأصفر كيف تتغلغلين في تربتنا الحمراء فتحيلينها إلى صفراء داكنة بالعطش!! ما أمر الصبر على الضيم!! ما أقبح أن تستمر في صبرك وأنت ترى عدوك يصول

ويجول!! ماذا بإمكانني أن أفعل تجاه هذا الضياع الرهيب؟! حتى أعمل بجهد كأني يجب أن أصفق لوحدي!! هل تستطيع اليد الواحدة أن تصفق؟! لا بد من يد أخرى، من أياد أخرى!! أين هذه الأيادي!! صفقنا في التنظيمات!! صفقنا في الأحزاب!! صفقنا في النقابات والجمعيات والمدارس والجوامع!! تصفيق.. كلام!! صفقنا في بعض العمليات العسكرية، الخسارة كبيرة!! لا بد من الكفاح الجماهيري المسلح!! لكنه يجب أن يكون من الكل الخارج والداخل!! مئة قيد وقيد تحاصرك لتتهمك بالتطرف عندما تقرر أن تحمل السلاح!! لا بد من حمل السلاح في معركة شعبية عسكرية ذات صراع طويل الأمد؟! كيف نبدأ المعركة!! تصفيق الكلام!! التوازن!! قرارات الدول والمؤتمرات!! السلام المزعوم الواهي!! تسويق التطبيع والعولمة!! تصفيق وتصفيق.. كأن التصفيق نهر العبث أو انتظار جودو الذي لن يجيء!! كيف نصفق؟ من ندعو إلى التصفيق معنا!!

بداية التصفيق الحقيقي تبدأ من حركة هذا الشعب القابع تحت أقذر استيطان على وجه الأرض وعبر التاريخ البشري كله.. لا بد من انتفاضة عصيان مدني.. ثورة.. كيف نبدأ؟! ماذا نجني!! ما قدر الخسارة التي سنخسرها في صراعنا مع هذه الحالة الكئيبة التي تواجهنا في دوامة الضياع الرهيب!! من سيحارب معنا؟!

دارا تنتظر من ينتقم لشرفها المباح على سنة الله ورسوله بشهادة حانا.. سعدة، رغم انهيارها بعد سقوطها، تنتظر من

ينتقم للشرف المباح على سنة الشيطان أبو نعيم ورسوله حانا الخائن!!

مكبل بآلاف القيود التي تجعلني أفكر وحيدا: كيف أنتقم لموت رابعة التي أحببتها أكثر من أمي بعد أن ولدني بصرخة الرعد، فكانت جنازتها عوضا عن جنازتي؟! كيف أنتقم لاغتصاب دارا التي أحببتها كما أحببت شجرة الزيتون. زرعت معها قبل سفري زيتونة صغيرة، قلت لها: عندما تنتج دارا الشجرة "تنكة زيت" سنتزوج. لن يطول الأمر؛ خمس سنوات على الأكثر. . اغتصبها مني الأعور الخائن بعد خمسة أيام من رحيلي. قهقهه حانا في ضلوعي كما الجحيم!! جنت دارا هاربة صارخة عارية تستصرخني، لا أملك لها غير أغنيتي الحزينة: "يا دارا دوري، دوري في ضلوعي دوري، في دمي، أحشائي، قلبي، ذاكرتي، كتابي. . دوري" . . دوري حتى يصفق معي الآخرون تصفيق الثأر، لا الشعارات!!

انتهت.

فصول الرواية

5	إهداء
7	تنويه
11	(1) رابعة
31	(2) البلدة
55	(3) حانا
77	(4) مانا
97	(5) سعدة
119	(6) لحانا
133	(7) حانا ديك.. مانا ثور.. سعدة كبش.. ..
145	(8) ابن عامر

سيرة أدبية

- * حسين عبد الله موسى المناصرة
- * محاضر بجامعة الملك سعود بالرياض/ قسم اللغة العربية.
- * المنشورات أو المخطوطات في:
- * النقد
- فرح أنطوان روائياً ومسرحياً، دار الكرمل، عمان ١٩٩٤.
- ثقافة المنهج/ الخطاب الروائي نموذجاً، دار المقدسية، حلب ١٩٩٩.
- ثقافة المنهج/ الخطاب الروائي نموذجاً، ج ٢ (قراءات لخمسین كتاباً في النقد السردی العربي).
- إشكاليات في الرواية الفلسطينية (دراسات نقدية).
- سياق الكتابة المتجددة.
- بعض الكتابة ثرثرة (مئة مقالة في الأدب والثقافة).
- في نظرية الكتابة النسوية وإشكالياتها.
- المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية الذكورية الفلسطينية.
- المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية النسوية الفلسطينية.
- قراءات في الأدب السعودي.
- * القصة القصيرة:
- لقاء في الفوج الأخير، المطابع التعاونية، عمان ١٩٩٥.
- التبغ واللجنة أو آخر ما توصل إليه عبد الله المسكين، دار الكرمل، عمان ١٩٩٦.

- بقايا من الهذيان (كتاب داريا وبقايا من الهذيان)، دار
الفارس، عمان ١٩٩٩.
- الليلة الشارة الواردة (قصص قصيرة جداً) (كتاب داريا
وبقايا من الهذيان)، دار الفارس، عمان ١٩٩٩.
- التنفس حلاًماً.
- * الرواية:
- بوابة خربة بني دار، دار الحوار، اللاذقية ١٩٩٧.
- داريا أو الحوت ينام في جوف الريموت (كتاب داريا وبقايا
من الهذيان) دار الفارس، عمان ١٩٩٩.
- ذاكرة القضبان.
- يوميات محرز المحرز.
- * المسرحية:
- في طريقهم إلى الجنون، دار آرم، عمان ١٩٩٤.
- الرخ يعانق بروميثيوس أو دليلة تتقيأ، دار الحوار، اللاذقية
١٩٩٥.
- العفاريات تظهر في النهار.
- الركض وراء الخوف.
- ثلاث مسرحيات قصيرة للأطفال.

يا للكارثة!! يبدو ما حدث جلياً.. عرف
حانا السر، هدد والدي، أنا الضحية، كيف
هدده؟! قررت أن أعرف المؤامرة من والدي!!
ذهبت صباح اليوم التالي الذي خطبت فيه
لابن المختار إلى المكان الذي دفن فيه والدي
البارودة.. حفرت.. حفرت.. لم أجد شيئاً..
تعبت من الحفر! توقفت.. رفعت بصري الى
السماء.. كان أبي يقف فوق رأسي، عيونه
تدمع.. نظر إليّ بحزن عميق للحظات كما
تخيلته.. هجم عليّ يقبلني.. أتصدق أنه
هجم يقبل قدمي، كنت متلبدة الأحاسيس
تجاهه، لكنني لما رأيته يقبل قدمي.. نفرت
دموعي كنهرين جارين، هجمت على قدميه
أقبلهما.. منشان الله يابا ما تزوجني للأعور،
منشان الله، منشان الله. عفرت وجهي
بالتراب.. قلت له أين وضعت البارودة لأقتل
نفسي، أريد أن أطح نفسي. أهون من أتزوج
الأعور حانا الكلب.. وين البارودة يابا؟ وين
خبيتها!! ليش غيرت مكانها؟! ضمنى إليه..
أهذي.. سمعته يسب البارودة والذي جابها
.. خربت البارودة بيتي!! الله يكسر جاهك يا
حانا.. إيش بيدي أعمل.. يا تتزوجي الأعور
يا يخرب بيتنا!! أدركت أن المؤامرة أكبر مني
ومن أبي المسكين.